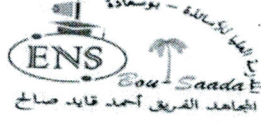


الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



Ecole normale supérieur
de Bou-saada



المدرسة العليا للأساتذة ببوسعادة
المجاهد الفريق أحمد قايد صالح
قسم اللغة العربية

محاضرات في الأدب الأندلسي والمغربي

المقياس: الأدب الأندلسي والمغربي.

المستوى: السنة الثانية (متوسط وثانوي).

الأستاذ: عبد العزيز نقبيل.

الرتبة: أستاذ محاضر صف (أ) بالمدرسة العليا للأساتذة ببوسعادة.

السنة الجامعية: 1447هـ-1448هـ/2025-2026م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محاضرات في الأدب الأندلسي والمغربي.

مفردات المادة:

المحاضرة الأولى:	من مظاهر الحياة العامة في الأندلس.
المحاضرة الثانية:	الشعر الأندلسي عبر العصور الأندلسية.
المحاضرة الثالثة:	الشعر الأندلسي بين التقليد والتجديد.
المحاضرة الرابعة:	شعر الطبيعة.
المحاضرة الخامسة:	رثاء المدن والممالك.
المحاضرة السادسة:	الحنين والغربة في الشعر الأندلسي.
المحاضرة السابعة:	شعر الاستصراخ والاستغاثة.
المحاضرة الثامنة:	الشعر التعليمي.
المحاضرة التاسعة:	الموشحات الأندلسية.
المحاضرة العاشرة:	الأزجال الأندلسية
المحاضرة الحادية عشرة:	الأدب في عصر المماليك.
المحاضرة الثانية عشرة:	من فنون النثر الأندلسي: الخطابة.
المحاضرة الثالثة عشرة:	فن الترسل في الأندلس.
المحاضرة الرابعة عشرة:	رسالة التواضع والزواجر لابن شهيد.
المحاضرة الخامسة عشرة:	فن المناظرة في الأدب الأندلسي.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والصلاة والسلام على خلاصة الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

هذه محاضرات الأدب الأندلسي والمغربي موجهة لطلبة المدرسة العليا للأساتذة السنة الثانية للتعليم المتوسط والثانوي. حاولت فيها -بقدر الإمكان- تبسيط تقديمها للطلبة حتى يسهل عليهم الفهم الاستيعاب، ومحاضرات الأدب الأندلسي والمغربي غزيرة في مادتها، متشعبة في موضوعاتها وقضاياها.

يبدأ مصطلح المغربي بدخول الفاتحين إلى أرض المغرب، وبعد الفتح أصبح يسمى بالمغرب الاسلامي، ويبدأ مصطلح الأندلس الذي هو امتداد للمغرب من الناحية الزمنية سنة 92هـ بعد استقرار بلاد المغرب الإسلامي، وعبور الفاتحين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية في ولاية موسى بن نصير، وبقيادة طارق بن زياد، تكلل هذا الفتح بقيام دولة الأندلس، وينتهي عصرها في التاريخ السياسي بسقوط آخر قلاعها المتمثلة في دولة بني الأحمر بغرناطة في سنة 898هـ 1492م.

هذا العصر الذي عدّه الباحثون بأنه عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العلم والعمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل في أرض المغرب الإسلامي، وأثمرت فيه الفنون الإسلامية، وتألفت العربية، وزهت آدابها، ونقلت العلوم العربية، وترجمت إلى غيرها من لغات الأقطار الأجنبية، وانتشرت الفلسفة الإسلامية، ونضج العقل العربي، ووجد سبيلا إلى البحث والتفكير والتأليف. وعليه فالإطار الزمني للمقياس يشمل فترة زمنية طويلة شهدت كثير من الأحداث السياسية والتطورات الأدبية والفنية.

تناولت المحاضرات قسمين: قسم الشعر، وقسم النثر: ففي قسم الشعر تطرقت إلى الكثير من الموضوعات والقضايا الشعرية التي طبعت الأدب الأندلسي في هذا العصر، تناولت بداية أهم مظاهر الحياة العامة في الأندلس، ليقف الطالب عند أهم المحطات البارزة حول الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية لبلاد الأندلس بعد أن تعرف على الإطار الجغرافي الذي يحدد تخومها. ثم عالجت المحاضرات أهم الموضوعات والقضايا الشعرية في هذه المرحلة المهمة من تاريخ الأدب العربي القديم.

تطرقت المحاضرات بداية إلى الشعر الأندلسي، وعالجت قضية التقليد والمحاكاة، ثم تناولت الموضوعات الموسعة: كشعر الطبيعة، ورثاء المدن والممالك الزائلة، وشعر الحنين والغربة، وشعر الاستصراخ والاستغاثة، والشعر التعليمي، ثم تطرقت إلى الموضوعات المستحدثة: الموشحات والأزجال.

وفي قسم النثر تناولت المطبوعة البيداغوجية أهم الفنون النثرية، على نحو فن الخطابة، وفن الترسل، وعرجت على بعض الضروب الفنية التي أغنت الحياة الأدبية النثرية الأندلسية، وتلونت بلون الأثر الفلسفي، والفكري، فظهرت رسائل متنوعة المشارب موضوعيا وفنيا: نذكر منها التوابع والزوابع لابن شهيد، ورسالة، وفن المناظرات، كما تضمنت المحاضرات ترجمة لبعض أعلام الشعر والكتابة النثرية في الأندلس.

وتحضيرا لهذه المحاضرات اعتمدت على عدد من المصادر والمراجع المختلفة التي تنوعت بين القديمة والحديثة، تأكيداً على المعلومة وتوثيقاً لها، وتمكيناً للطلبة حتى يتعرفوا على بعض الدراسات التي أنجزت حول موضوعات الأدب المغربي والأندلسي، واستقيت منها المعارف والمعلومات التي تفي بالغرض لمعالجة كل ما يتعلق بمفاصل هذه المحاضرات التي تبحث في قضايا ونصوص الأدب المغربي والأندلسي، وحتى المملوكي، فكانت هذه الخزانة المعين والمساعد لي في استخراج الكثير من النماذج

والشواهد الشعرية والنثرية المختلفة، خدمة لمعلومات المحاضرة. كما استأنست أيضا بمجموعة من الدواوين الشعرية التي تعد مصدرا للشعر العربي القديم، وجمعت كل ذلك في قائمة المصادر والمراجع.

ومن أهداف مفردات الأدب الأندلسي والمغربي في هذه المرحلة وانطلاقا من المحتوى المعرفي الذي يتلقاه طلبة السنة الثانية استهدفت المحاضرات المخرجات الآتية:

- أن يتعرف الطالب على أبرز المظاهر السياسية والأدبية والثقافية في بلاد الأندلس.
- أن يعرف الطالب أهم الخصائص الفنية في الأدب المغربي والأندلسي.
- أن يتعرف الطالب على أبرز أعلام الشعر والنثر في هذا العصر.
- أن يقف على أهم الاتجاهات والقضايا الموضوعية والفنية في الشعر الأندلسي.
- أن يقف على أهم الموضوعات والقضايا النثرية عند الكتاب الأندلسيين.
- أن يتمكن الطالب من قراءة نماذج من نصوص الأدب الأندلسي تذوقا وتحليلا.

ولا يفوتني أن أذكر بعض الصعوبات التي واجهتني أثناء إعداد هذه المحاضرات، وهي صعوبات تعترض أي باحث، نذكر منها مشكلة العثور على بعض المصادر والمراجع، وضيق الوقت في إنجاز المحاضرات وتقديمها للطلبة، فلا يمكن تقديم كل المحاور الكبيرة من الأدب المغربي الأندلسي الثرة التي لا يكفيها من الزمن هذه السويغات التي فرضها ضيق التكليف الزمني، مما يضطر الأستاذ إلى اختصار المعلومات أحيانا تماشيا مع سلطان الوقت المفروض بيداغوجيا.

وفي الختام أرجو أنن -وفقت ولو بشكل يسير- في إعداد هذه المحاضرات خدمة لطلبتنا، ولا يفوتني أن أقدم شكري إلى كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو بعيد وبالله التوفيق.

من مظاهر الحياة العامة في الأندلس

.تمهيد:

دام حكم العرب المسلمين للأندلس ما يقارب الثمانية قرون (92-897هـ-710-1492م) أعطى خلالها الفتح الإسلامي ثماراً طيبة في بلاد الأندلس التي شهدت اندماجاً وتكاملاً بين مكونات مجتمعه، وكانت الحضارة يومها تشع من حواضر الأندلس، من قرطبة، وإشبيلية وغرناطة، وطليطلة، وبلنسية، وسرقسطة وكانت قرطبة في عصر الخلافة الأموية (316-422هـ/928-1030م) عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعاً في ذلك الوقت والأكثر تحضراً في أوروبا⁽¹⁾.

لما سقطت الخلافة الأموية في الأندلس في العام 422هـ/1030م عمت حالة الضعف والفرقة والانقسام السياسي وكل ذلك بقيام دويلات الطوائف التي شهدت تنافساً سياسياً فيما بينها، كما عرفت برعاية وتنشيط الحركة العلمية واستقطاب العلماء، وإغداق العطايا عليهم، حتى غدت مجالسهم الملكية عبارة عن منتديات علمية وأدبية، وكان على رأسهم ملك.

بعد زوال حكم دويلات الطوائف سنة 484هـ/1090م وسيطرة دولة المرابطين، ومن بعدهم الموحيدين سنة 541هـ/1146م على الأندلس لم تتأثر الحركة العلمية والأدبية بتلك التقلبات السياسية، بل ازدادت سعة ونشاطاً، لاسيما في عصر الموحيدين الذي اتسم بحرية الفكر، حيث وجه حكام هذه الدولة اهتماماً كبيراً للعلم والثقافة، فقد كانوا من محبي أهل العلم مقدرين مكانتهم، وحريصين على جمعهم في مجالسهم، وإكرامهم، ولا عجب من ذلك فقد كان البعض من هؤلاء الحكام، علماء كما وصفتهم كتب التاريخ والتراجم، كعبد

¹ -مارغريتا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوروبا عبر الأندلس، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، دار الرشاد، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 196.

المؤمن بن علي الذي قيل فيهك إنه كان «عالمًا بالجدل فقيهاً في علم الأصول مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، إماماً في النحو واللغة»⁽¹⁾.

وأبو يعقوب يوسف الذي وصفه عبد الواحد المراكشي بقوله: «كان ذا إيثار للعلم شديد التعطش إليه مفرط، وكانت له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو ثم طمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ... وبدأ من ذلك بعلم الطب ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي»⁽²⁾.

وبعد ذلك آل الأمر بعد سقوط دولة الموحدين إلى بني الأحمر وهم أيضاً تركوا بصماتهم الفنية والعمرانية وشيدوا قصور الحمراء التي لا تزال شاهدة على إنجازاتهم الحضارية إلى يوم الناس هذا، وفي آخر أيامهم انحسرت الدولة في مدينة غرناطة التي شهدت آخر أيام الأندلس بعدما حاصرها القشتاليون، وطردوا جميع السكان إلى الضفة الأخرى وبذلك تنتهي دولة الأندلس.

1- تسمية الأندلس:

اختلف المؤرخون في تسميتها فمنهم من قال أنها سميت على الأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح الذي نزلها، كما نزل أخوه سبت العدو المقابلة واليه تنسب سبتة⁽³⁾ ويذكر القلقشندي أنها سميت بالأندلس نسبة إلى قبائل الوندال Vandalos (الفندال) الذين نزلوا بالسهل الواقع جنوب النهر الكبير فأطلقوا اسمهم عليها (فاندلوسيا) Wandalos ولما

¹- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، مصر، 1960، ج2، ص457-460.

²- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، المغرب، 1972، ص203.

³- المقرئ أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن أهل الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1998، مج1، ص125.

قدم العرب عربوا هذا الاسم إلى الأندلس⁽¹⁾. وقد جعل المسلمون هذا الاسم شاملا لكل البلدان التي فتحت، وأصبح بعد ذلك يطلق على مقاطعات اشبيلية وقرطبة وغرناطة⁽²⁾.

2- الإطار الجغرافي للأندلس:

تقع بلاد الأندلس في الجنوب الغربي من قارة أوروبا يحدها شمالا فرنسا، وجنوبا مضيق جبل طارق وجزء من البحر المتوسط، وشرقا البحر المتوسط، وغربا المحيط الأطلسي، تتخللها أنهار كثيرة تصب في المحيط، وبعضها في البحر المتوسط⁽³⁾. يؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها: الهضبة الكبرى التي تسمى مسيتا Meceta وهي تشغل حيزا من مساحة شبه الجزيرة، وتأتي بعد تلك الهضبة سلاسل جبلية توشك أن تطوقها وهي جبال سيرا مورينا Sierra morena التي تعرف بالجبال السمرراء وسماها العرب جبال الشارات، ثم تأتي جبال سيرا نيفادا Sierra Nevada وسماها العرب جبال الثلج، وبين السلسلتين الجبليتين سهول منبسطة حتى أقصى الجنوب.

ترتفع في أقصى شمال الهضبة الكبرى جبال القنطيرية Cantabrica وتلي هذه الجبال بعض الأقاليم السهلية. وتجري في الأندلس أنهار عديدة، أهمها نهر الوادي الكبير الذي يسميه الإسبان حتى اليوم بهذا بما أطلقه العرب فيقولون: جواد الكبير Guadalquivir وهذا الوادي، ويمر بمدينة قرطبة واشبيلية وغيرهما، ويصب في المحيط الأطلسي، ووادي يانة Guadaiana ويأتي بعده شمالا نهر التاجه El Tajo تقع

¹-الفلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، ط1، 1915، ج5، 211.

²-جودت الركابي: الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دت، ص9.

³-خليل محمد: في الأدب الأندلسي موضوعات وقضايا، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد، العراق، ط1، 2017، ص12.

عليه مدينة طليطلة، وطلبيرة، وشنترين، ويصب عند أشبونة في المحيط، وهناك أنهار أخرى تصب شرقاً في البحر المتوسط⁽¹⁾.

تتمتع بطبيعة خلابة تدرج فيه الجبال، وتكثر فيها الزروع، أرضها مكسوة بالشجر والزهر والثمر، متعددة الأنهار، هذا الجمال الطبيعي الأخاذ أثر في ساكنتها وفي أدبائها وشعرائها؛ فخلبت ألبابهم وشحذت قرائحهم، وأطلقت ألسنتهم في التعبير عن جمالها⁽²⁾.

3-الفتح الإسلامي للأندلس:

تم فتح الأندلس في أواخر القرن الأول الهجري على يد القائد طارق بن زياد في ولاية موسى بن نصير سنة 92هـ وظلت ولاية تابعة للحكم الأموي في دمشق، ولما سقطت دولة بني أمية سنة 132هـ وأسس العباسيون ملكهم في بغداد، وأخذوا يضطهدون الأمويين، فر الأمير عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل إلى الأندلس سنة 138هـ وقد أفلح في تجديد ملك بني أمية بالأندلس، لكنه لم يتسم هو أو خلفه بلقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين، وإنما كان ذلك في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي 316هـ⁽³⁾.

وظلت الخلافة قائمة حتى سنة 422هـ حين غلب الأمويون على أمرهم، وانتشرت الفتن في البلاد، ومن ثمّ استقل كثير من الأمراء بمقاطعات صغيرة، ودعوا بملوك الطوائف: كبني عباد بإشبيلية، وبني الأفطس ببطليوس، وبني ذى النون بطليطلة، وبني هود بسرقسطة، وبني عامر ببلنسية، ومجاهد العامري بجزر البليار⁽⁴⁾.

¹-خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلسي، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2000، ص11.

²-خليل محمد: في الأدب الأندلسي موضوعات وقضايا، ص13.

³-جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص10.

⁴-خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص23.

وفي ذلك الوقت قامت في المغرب ثورة تدعو إلى استقلاله عن الأندلس، وانفرد بالحكم فيه المرابطون. أكثر من نصف قرن حيث ذهب ملكهم في بلاد المغرب على يد الموحدين الذين ورثوا عنهم الأندلس، وحكموها مدة قرن من الزمان سنة 541هـ، وبعد سقوط هذه الدولة عادت الأندلس إلى التفرقة والانقسام، ثم أخذ ملك حكامها يتقلص تدريجياً إلى أن أجلى العرب عن غرناطة آخر حصونهم سنة 897هـ.

4- المراحل السياسية في الأندلس:

يقسم الحكم العربي الإسلامي في الأندلس إلى الفترات الآتية:

عصر الولاة (92- 138هـ). وعصر الدولة الأموية المروانية (138-422هـ): وتشمل هذه الدولة: عصر الإمارة (138-316هـ). وعصر الخلافة (316-422هـ) وعصر دول أو ملوك الطوائف (422- 484هـ) وعصر المرابطين، وعصر الموحدين: دخل جيش الموحدين الأندلس سنة 541هـ لإنهاء نفوذ المرابطين. ودولة غرناطة: (635-897هـ)⁽¹⁾

5- التركيبة الاجتماعية لسكان الأندلس:

نزل بشبه جزيرة أيبيريا قبل الفتح الإسلامي لها كثير من الأقوام منهم: السلتيون والجلالقة، والبرابرة، والقرطاجية، ثم استولى عليها الرومان، والوندال، والقوط، وبعد الفتح أطلق المؤرخون على الذين دخلوا الإسلام من السكان الأصليين مصطلح الأسالمة أو المتسالمة. وقد تكون المجتمع الأندلسي من عدة عناصر أهمها:

1.5-العرب: كان العرب في مستهل الفتح قلة مقارنة بالعناصر الأخرى، ثم أخذت أعدادهم تتكاثر وتنتشر في أنحاء شبه الجزيرة الأندلسية بفعل الهجرة والتوالد بالمهاجرين

¹ -محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص28-40.

العرب الذين أخذوا يرحلون إليها أفواجا تلو أفواج بعد الفتح الإسلامي، وكانوا يحسون بارسقاطيتهم لغبتهم على الإسبان، وبلغتهم التي تفوق غيرها⁽¹⁾.

2.5-البربر: يشاركون العرب في البداوة والإسلام والشجاعة والعصبية القبلية، وكانوا في أول أمرهم أكثر عددا وقوة من العرب، وكان تيار هجرتهم متصلا بحكم الجوار⁽²⁾. وقد تأثرت جماعات البربر المستقرة في الأندلس بالبيئة الجديدة تأثرا عظيما، ولم يكد الجيل الأول منهم ينقضي حتى طلع الجيل الثاني أندلسيا خالصا.

3.5-الموالي: هم مولى بني أمية، ويمثلون ثلاث طوائف: من دخلوا الأندلس إبان الفتح، ومن دخلوا في ولاء البيت الأموي من أهل البلاد، وقد كان لهؤلاء الموالي اليد العليا في إقامة دولة عبد الرحمن الداخل. هذه العناصر الثلاثة هي التي دخلت الأندلس مع الإسلام أو بالإسلام ووضعت أساس إسلام الأندلس وعروبته⁽³⁾.

4.5-المولدون: هم العنصر الناشئ من تزواج العرب بالبربر، أو العرب بالإسبانيات والصقالبة، وقد خرج من هذا الزواج بين عربي وأخرى غير عربية جيل جديد مولد يشبه ما كان في الشرق من تزواج بين عربي وفارسية، وظل اسم المولدين يطلق على هذا العنصر حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ثم تلاشت هذه التسمية بسبب اختلاط الناس، وتحول الدولة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز، ومن صفات المولدين من النساء الأسبانيات: الشجاعة والذكاء والجمال وكان لهم في الأندلس تاريخ طويل⁽⁴⁾.

¹-أحمد أمين: ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مدينة نصر، مصر، دط، 2013، ج1، ص471.

²-المرجع نفسه، ص471.

³-حكمة علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، دط، 1971، ص472.

⁴-المرجع نفسه، ص29.

يذهب عبد الله حمادي الى أن هذه الفئة كذلك من الذين اعتنقوا الاسلام بعد اقتناع وتحول معظمهم الى موالى الفاتحين، وخاصة منهم البربر، لأن المغاربة كانوا يشكلون غالبية الفاتحين⁽¹⁾.

5.5-أهل الذمة: ويطلق عليهم أيضا: اسم المستعربون، والمسالمة والمعاهدون هم من بقوا على مسيحيتهم ولم يدخلوا في الإسلام⁽²⁾ هؤلاء كانوا يرون أن الفاتحين دخلاء عليهم، وأنهم أحق بملك بلادهم، ويندرج مع هذا العنصر الإسباني المسيحي، واليهود الذين كانوا على زمن القوط أقلية مستضعفة، ومن ثم آزرروا الفتح الإسلامي للأندلس، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة، واستطاع بعضهم أن يحتل مناصب رفيعة في الدولة على نحو إسماعيل يوسف ابن النغريلة، وكان منهم شعراء وكتاب⁽³⁾.

6.5-الصقالبة: هو اسم كانوا يطلقونه على أسرى الحرب من جميع البلاد الأوروبية، وعلى من وقع في أيدي المسلمين من الرقيق، هي أيضا تسمية أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عموما، لأن بعض الجرمان وغيرهم دأبوا على سبي تلك الشعوب وبيع الرجال والنساء الى عرب إسبانيا⁽⁴⁾، وبهذا أدخل عبد الرحمن الناصر على الأندلس عنصرا جديدا مقلدا في ذلك الخليفة المعتصم العباسي الذي أنشأ جيشا من الأتراك الذي يعتمد عليه لما تعب من العرب⁽⁵⁾.

ويذكر المؤرخون أن المجتمع الأندلسي بمختلف مكوناته البشرية كان يسوده الانسجام والنظام، وتسوده روح التسامح بينهم، يظهر ذلك في أناقة لباسهم وترتيب بيوتهم

¹ - عبد الله حمادي: المورسكيون ومحاكم التفتيش، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 ص12.

² -المرجع نفسه، ص33.

³ -أحمد أمين: ظهر الإسلام، ص472.

⁴ -عبد الله حمادي: المورسكيون ومحاكم التفتيش، ص16.

⁵ -محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص16.

وتجميل قراهم ومدنهم، وشكلت المرأة الأندلسية نموذجاً عالياً من خلال مشاركتها في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية.

6- الحياة الفكرية والثقافية:

أبدع الأندلسيون في مختلف العلوم والفنون، وأجادوا صناعة الأدب والموسيقى والغناء وفن العمارة، والزخرفة، وشهدوا كل ذلك لتوفر بواعث الإبداع في بلاد الأندلس التي تمثلت في:

أ- طبيعة الأندلس التي عرفت بخضرتها ومائها وشدو طيورها ومختلف حيواناتها وزهرها وثمارها، وتعدد أشكال التساقط فيها الذي الماء وخصوبة أرضها.

ب- جمال المرأة الأندلسية الذي كان وراء إبداع الكثير من الشعراء والكتاب.

ج- التقلبات السياسية والأوضاع الاقتصادية المتغيرة نتيجة الأحداث الكثيرة المتسارعة والحروب.

د- الترف الذي كان يعيش فيه أهل الأندلس أحياناً مما جعل الأدباء يتفننون في إبداع الكثير من الفنون الجديدة، ومن أهم روافد الثقافة في الأندلس أيضاً الرحلات والهجرات التي على إثرها انتقلت الثقافات بفعل التأثير والتأثير.

رحل كثير من علماء الأندلس إلى بغداد وغيرها من بلاد المشرق وأعجبوا بها بما كان هناك من علم وأدب، وقد ولع الخلفاء والأمراء بمجاراة أهل المشرق في علومهم ومدنيتهم، فنقل عبد الرحمن الناصر ما كان عند العباسيين، وأفسح صدره للعلماء والأدباء، وكان الحكم هو من أرسل إلى أبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ليرسل إليه بكتابه الأغاني قبل أن يخرج به ببغداد⁽¹⁾.

¹ -محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص16.

كان للرحلات العلمية أهمية كبيرة في إثراء الثقافة الأندلسية نذكر من نماذجها رحلة ابن الخطيب الأندلسي، وابن الأبار القضاعي، وخارجها ابن بطوطة، وابن جبير، وابن ماجد، وابن خلدون، وكان لهم تواليف في رحلاتهم، وعرفت الأندلس الكثير من الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق ومن المشرق إلى الأندلس⁽¹⁾ قصد العلماء والأدباء المراكز المشرقية، واطلعوا على الحركة العلمية والأدبية منابعها الأصلية، وعادوا بالزاد العلمي إلى بلاد الأندلس.

شهدت البلاد تفاعلا حضاريا وثقافيا في كل مناراتها وحواضرها، وأصبحت منارة العلم والأدب والفكر، وأحيا الأندلسيون علوم الدين وعلوم اللغة وفنون الشعر، والسير، وأدخلت كتب اللغة مثل مصنفات الأصمعي والكسائي والفراء وابن الأعرابي ومؤلفات الفراهيدي وابن قتيبة وابن السكيت⁽²⁾ وبذلك اشتهرت الثقافة المشرقية بالأندلس، كما شهدت زيارة أبي علي القالي صاحب كتاب الأمالي، وابن صاعد البغدادي اللغوي الشهير، وكان لزيارته المغني الذي قدم من بغداد أثر عظيم في إصلاح صناعة الغناء⁽³⁾ وبث بعض العادات التي كانت ذائعة في بغداد، فقد كانت الصلة العلمية لا تتقطع بين البلدين، وكان الطريق من بغداد إلى قرطبة أهلا بالراجلين من العلماء والأدباء.

¹-حكمة علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي، ص44.

²-المرجع نفسه، ص50.

³-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، ص17.

الشعر الأندلسي عبر العصور الأندلسية.

1- عصر الإمارة (138-316هـ):

بدأت هذه المرحلة السياسية بمجيء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس الذي أسس الدولة الأموية، ازدهر الشعر في هذه المرحلة، وكان الاعتماد على الثقافة المشرقية واضحا، ولم تأخذ طابعها المميز إلا في عصر الإمارة بقرطبة لما شعر المسلمون بالاستقرار هناك، وأصبحوا بحاجة إلى الثقافة والإبداع لتصبح لهم مكانتهم الخاصة والبارزة التي ينافسون بها إخوانهم المشاركة، ومن أبرز شعراء هذه المرحلة عبد الرحمن الداخل⁽¹⁾ الذي يقول⁽²⁾:

أَقْرَ مِنْ بَعْضِي السَّلَامَ لِبَعْضٍ	أَيُّهَا الرَّكِيبُ الْمَيِّمُ أَرْضِي
وَفُؤَادِي وَسَاكِنِيهِ بِأَرْضٍ	إِنَّ جِسْمِي كَمَا عَلِمْتَ بِأَرْضٍ
وطوى البين عن جفوني غمضي	قُدِّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَأَفْتَرَقْنَا
فعسى باجتماعنا سوف يقضي	قد قضى الله بالفراق علينا

ويقول في وصف نخلة⁽³⁾:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تتأنت بأرض الغرب عن بلد النخل

¹-الشاعر عبد الرحمن الداخل: هو أبو المطرف عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بعبد الرحمن الداخل وأيضا بصقر قریش، ولد بدمشق سنة 113هـ ونشأ يتيما من أم بربرية من المغرب تسمى (راح). استطاع أن يعبر إلى الأندلس ويعيد فيها ملك آباءه من بني أمية الذي أسقطه العباسيون، سنة 132هـ بعد أن فلت من مطاردة العباسيين دخل الأندلس وبويع بالإمارة بقرطبة سنة 138هـ عرف الرجل بالبأس والحزم، ولا يكل الأمور إلى غيره ولا يتفرد برأي، شجاع مقدام سخي، وكان مهندسا عمرانيا حذقا بارعا، أشرف على تخطيط وبناء الرصافة في قرطبة وصمم جامعها الشهير، وهو شاعر مقتدر، له شعر كثير لكن معظمه فقد، وصلنا منه مقطوعات قليلة(ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، الحلة السيرة لابن الأبار القضاعي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس للحميدي، نفح الطيب للمقري، ج3).

²-أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص90.

³-المرجع نفسه، ص89.

فقلت: شبيهي في التغرّب والنّوى وطول التّنائي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غواذي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل

لقد اشتهر في هذه المدة الزمنية كثير من الشعراء، ومنهم الشاعر عباس بن ناصح الذي كان على علم كبير في الأدب واللغة، ولكنه عُرفَ شاعرًا أكثر منه عالمًا، وقد خَلَفَ ديوانًا كان موضع عناية شعراء الأندلس، ومع ذلك لم تكن للطبيعة الأندلسية أثر كبير في هذه المرحلة، بل كان الشعر أشبه بمسجل للوقائع الحربية. ومن شعراء هذه المرحلة أيضًا يحيى بن الحكم الغزال⁽¹⁾ الشاعر الأنيق والحكيم، وسمي بالغزال لفرط جماله، ومن شعره ما جاء في هذه القصيدة⁽²⁾:

كلّفتَ يا قلبي هوى متبعا غالبت منه الضيغم الأغلبا
إني تعلّقت مجوسية تأبى لشمس الحسن أن تغربا

¹-الشاعر يحيى الغزال: هو يحيى بن حكم البكري، أصله من جيان، كان يلقب بالغزال لفرط جماله وأناقته، وعرف أيضًا بالحكمة لذلك أرسله الخليفة عبد الرحمن الأوسط سفيرًا إلى بلاط ملك النورمانيين بالقسطنطينية، فاستمال الغزال قلوب النساء بظرفه وخفته، وأعجبت به الملكة (تود) وقد ألهمته هذه السفارة وغيرها البلاطات والسفارات الأخرى أشعارا لطيفة وجميلة، عمر الشاعر طويلا فقد عاش أكثر من تسعين سنة، يؤكد ذلك ما قاله في أرجوزته التاريخية:
أدرت بالمصر ملوكا أربعة وخامسا هذا الذي نحن معه

وهو الذي أدرك زمن كل من: الأمير عبد الرحمن الداخل، وابنه هشام، وحفيده الحكم الرضي، وابنه عبد الرحمن وحفيده محمد، لذلك كثر المديح لهؤلاء في شعره، يوصف بأنه شاعر الأمير عبد الرحمن الثاني الأوسط اختاره شاعرا له، ولقوة شخصيته ذاعت شهرته آفاق الأندلس، وكان من رجال الدولة لما يمتاز به من صفات الظرافة والذكاء والبديهة الحاضرة والتفكه وخفة الروح، والجد والهزل فضلا عن ثقافته الواسعة، من أصدقائه المقربين عباس بن فرناس، وعدا من الشخصيات الطريفة في الأندلس، كان يتنبأ ميدان الشعر والحكمة في بلاط قرطبة، ويحظى بأسمى آيات الثقة والاحترام والتقدير في عصره. له ديوان شعر كبير، نظم في كل الأغراض الشعرية، قال في المدح والهجاء والخمرات والغزل والسجون خاصة في مرحلة شبابه، وله في منتصف عمره أشعارا في النقد الاجتماعي والأخلاقي، وختم عطاءه الشعري بالشكوى والزهديات والحكمة صور ملامح تجربته في الحياة (جذوة المقتبس للحميدي، المطرب في أشعار المغرب لابن دحية الكلبي، الديوان، فصول في الأدب الأندلسي حكمة علي الأوسي).

2-يحيى بن الحكم: الديوان، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط، 1993، ص 34 .

يقول في الحكمة⁽¹⁾:

من ظنَّ أن الدهر ليس يصيبه بالحادثات فإنه مغرور
فالق الزمان مهونا لخطوبه وانجر حيث يحرك المقدور
وإذا تقلبت الأمور ولم تدم فسواء المحزون والمسرور

2-عصر الخلافة(316-422هـ):

لم يصل الشعر الأندلسي إلى أوجهه الكامل وسمته الجمالي إلا في عصر الخلافة الأموية بالأندلس، وفي هذا العصر الذي شيدت فيه المدن كالزهراء، وعمرت فيه المساجد⁽²⁾ وفي هذا العصر وفد أبو علي القالي، وصاعد البغدادي، ووفدت السفارات النصرانية من الغرب⁽³⁾ وعرفت فيه دواوين المتنبي وغيره من أئمة القريض العربي الفصيح، ومن أبرز شعراء هذه المرحلة نذكر: ابن أبي زمنين، وابن دراج القسطلي، وابن فرح الجباني، وفي طليعتهم نجد ابن عبد ربه الأندلسي⁽⁴⁾ صاحب الممخصات، وهي

1-المصدر نفسه، ص56.

2-انخل بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، نقل حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، ط4، القاهرة، 2008، ص82.

3-علي محمد سلامة: الأدب العربي في الأندلس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، دط، 1989، 47 .

4- الشاعر ابن عبد ربه: هو شهاب الدين أبو عمر أحمد بن عبد ربه بن حبيب ولد بقرطبة سنة 246هـ ونشأ فيها ودرس بها علوم العربية والفقه والتاريخ واهتم بممارسة النظم والكتابة يعرف بصاحب العقد الفريد الذي زاده شهرة في كل الآفاق، اتصل بأمرأ بني أمية ومدحهم ونال عطاياهم وشهد عصر عبد الناصر الذهبي لحضارة الأندلس، أصيب في آخر أيامه بالفالج وتوفي سنة 328هـ. كان أدبيا واسع الاطلاع، أحاط بفنون العلم والأدب، وكان شاعرا مجيدا ومكترا وكاتباً أريباً صحيح الأسلوب متين السبك سهل التراكيب، أورد شعره في كتابه العقد إثباتاً للهوية الأندلسية، كما جمع فيه أيضاً أقوالاً وأخباراً من والنثر والشعر، معظمها من المشرق حتى قال فيه صاحب بن عباد: هذه بضاعتنا ردت إلينا ومن مصادر كتابه: الكتب السماوية ودواوين الشعراء ومن كتب: ابن المقفع والجاحظ والمبرد وربما نقل أيضاً من عيون الأخبار لابن قتيبة نقلاً حرفياً، يحمل كتابه قيمة أدبية جلييلة لأنه سجل فيه أخباراً وأشعاراً قد ضاعت ولم يعرفها الأدباء إلا من خلال العقد الفريد. ولابن عبد ربه شعر كثير وفيه شعر عرف بالممخصات، وهي قصائد قالها بعد توبته آخر أيامه في المواعظ والزهد والحكمة، وقال أيضاً في مختلف الفنون الشعرية كالمدح والثناء والغزل والزهد، وله أرجوزة تاريخية في خمسة وأربعين بيتاً قالها في غزوات عبد الرحمن الناصر، كسب بهذا التألق شهرة واسعة في

قصائد قالها بعد توبته، يروى أنه لما سمع المتنبي شعره قال: «يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبوا»⁽¹⁾. ومن النماذج الشعرية في هذا العصر يقول ابن عبد ربه في الغزل⁽²⁾:

كتمت الهوى جهدي فحرره الهوى	بماء البكا، هذا يخط وذا يملي
وإن حكمت جارت عليّ بحكمها	ولكن ذاك الجور أشهى من العدل
أقول لقلبي كلما ضامه الأسى	إذا ما أبيت العز فاصبر على الذل

يقول في رثاء ابنه⁽³⁾:

يا قمرا أجحف الخسوف به	قبل بلوغ السواء في العدد
أيّ حشا لم تذب له أسفا	وأيّ عين عليه لم تجد
لا صبر ليعده ولا جلد	فجعت بالصبر فيه والجلد
لو لم أمت عند موته كمد	الحق لي أن أموت من كمد
ألوعة ما يزال لا عجا؟	يقدح نار الأسى على كبدي

3- عصر ملوك الطوائف (422-484هـ):

لما ضعفت السلطة المركزية للخلافة الأموية بدأ الولاة يستقلون بمناطقهم واتخذوا عواصم خاصة بهم ومن أهم ممالكهم: الدولة الزيرية بغرناطة، والدولة الحمودية بقرطبة ومالقة، والعامرية ببلنسيا، وبني هود بسرقسطة، وبني عباد بإشبيلية، وبني الأفطس ببطليوس، والجهورية في قرطبة، وذي النون في طليطلة، وغيرها من الدويلات. هذا وقد نشأت بين هذه الدويلات خلافات وحروب بلغ فيها الأمر حتى الاستعانة ببعض ملوك

المغرب والمشرق بشاعريته ومنزلته الأدبية. (أحمد هيكل: الأدب الأندلسي، ص231. تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص27).

¹-ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993، ج4، ص222.

²-ابن عبد ربه: الديوان، ص76.

³-المصدر نفسه، ص142.

الفرجة على إختهم في الدين⁽¹⁾ واتخذ التنافس أشكالاً عدة كالتنافس في العمران والفنون والآداب ومجالس الطرب والغناء وتشجيع الأدباء والشعراء.

4-عصر المرابطين(484-541هـ):

نشأت دولة المرابطين بالمغرب من قبائل صنهاجة البربرية على يدي عبد الله بن ياسين، عرفت بدولة الملتهمين، وبلغ أوجها على يدي يوسف بن تاشفين، الذي عاصر ضعف ملوك الطوائف، وطمع الفرجة في التوسع، حتى أن ألفونسو السادس حاكم قشتالة توغل في البلاد وعاث فيها فساداً، فاستنجد الأندلسيون بيوسف، وكتب إليه المعتمد بن عباد يستصرخه ويستنصره لإنقاذ الأندلس، فلبى يوسف الدعوة، وعبر إليهم ونصرهم.

يمكن القول: إن الحركة الأدبية قد حظيت باهتمام كبير على يد حكام الطوائف الذين كانوا أنفسهم أدباء وشعراء، وقد أصبحت عواصمهم حواضر ومراكز علمية للإشعاع الأدبي والفكري. إلا أنه لا يمكن أن نحكم على عصر الطوائف حكماً أدبياً من منظور الضعف السياسي الذي شهده عصر الطوائف الذي تمثل في الاختلافات بينهم والتفرق الذي أصاب الأمة في عهدهم، إلا أن هذا العصر الذي تردى سياسياً فقد نهض أدبياً على يد المرابطين، ومن الإنصاف أن ندمج كل أعلام الشعر والأدب في هذه المرحلة التي نسميها بمرحلة الطوائف والمرابطين.

ومن أهم شعراء هذه المرحلة الزمنية: المعتمد بن عباد، المقتدر بن هود، المعتصم بن صمادح، ابن عمار، ابن الحداد الأندلسي، ابن اللبانة، وابن حمديس الصقلي، وابن سارة الشنتريني، والفتح بن خاقان، وابن الزقاق الأندلسي، وابن بقي القرطبي، وابن بسام،

¹-محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس، ص20-30.

وابن حزم، وابن زيدون، وابن خفاجة، وابن حزم الأندلسي...ومن نماذج شعرهم يقول
المعتمد بن عباد⁽¹⁾ مصورا المآسي التي عاشها في الأسر⁽²⁾:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا ولا كافورا

يقول الشاعر ابن زيدون⁽³⁾ في رائعة من روائعه متغزلا وموظفا أجمل ما تزخر به طبيعة
الأندلس الساحرة⁽¹⁾:

¹-الشاعر المعتمد بن عباد: هو أبو القاسم المعتمد على الله محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، ولد في مدينة باجة بإشبيلية، وأبوه المعتضد من أقوى ملوك الأندلس في عصر الطوائف، بعد وفاة أبيه تولى المعتمد أمر إشبيلية وهو ابن تسعة وعشرون سنة، وأصبح صاحب قرطبة وإشبيلية ومرسية، عرف بالإمارة كما عرف بمكانته الأدبية والشعرية في الأدب الأندلسي، وعرف بحسه الشعري والنقدي، وأنه لم يستوزر وزيرا إلا أن يكون أدبيا شاعرا، كوزيره المقرب ابن عمار، أعجب المعتمد بالجارية اعتماد الرميكية لذكائها وشاعريتها فاشتراها من سيدها وتزوجها. أقام في دولته القصور والجنات وعاش مترفا، ولما هاجم الملك الأسباني الفونسو حاكم قشتالة البلاد، ولم يستطع التصدي له، هرع المعتمد مستجدا بيوسف بن تاشفين زعيم المرابطين الذي نصره وعبر الأندلس وقضى على كل التهديدات الأسبانية في معركة الزلاقة التي أعادت للأندلسيين هيبتهم ووطدت حكمهم، وبعد زمن ليس يسيرا عاد ابن تاشفين إلى الأندلس وعزل المعتمد بن عباد من ملكه وقيده وحمله أسيرا إلى حصن أغمات بمراكش (الذخيرة، ج2، ص35. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الأندلس، ص339).

²-المعتمد بن عباد: الديوان، تحقيق رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1975، ص101.

³-ابن زيدون الشاعر: هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي القرشي، ولد بقرطبة سنة 394هـ. ظهرت مقدرته العلمية والأدبية مبكرا في مراثيته لشيوخه ابن ذكوان، اتصل ابن زيدون بالأمير أبي الحزم جهور نشأ ابن زيدون في بيئة مثقفة فقد كان أبوه قاضيا من وجهاء قرطبة ثريا وفقهيا غزير العلم والأدب فأحضر له الأدباء والمربين، توفي أبوه وهو في الحادية عشر من عمره فاهتم به جده لأمه. تربى على يد أبيه الذي وصله بالعلماء والفقهاء والأدباء الذين تزخر بهم حاضرة قرطبة العامرة؛ التي كانت موئل العلم والأدب في الأندلس وتثقف بها ثقافة حسنة، ونظم الشعر باكرا، وكان ابن زيدون منحاذا لأبي الحزم بن جهور وصديقا لابنه أبي الوليد، ولما تسلم ابن جهور مقاليد الحكم استقدم الشاعر ابن زيدون، أوكل إليه النظر في أهل الذمة وجعله سفيرا لدى بعض ملوك الطوائف ولقبه بذي الوزارتين الذي تولى قرطبة، فمنحه الوزارة لصداقة بينهما في البلاط القرطبي التقى بولادة بنت المستكفي، كانت ولادة من نساء قرطبة الجميلات، وهي شاعرة مجيدة جعلت مجلسها ملتقى الشعراء وأهل الأدب، يقول ابن بسام

إنني ذكرتُك بالزهراء مشتاقا
 وللنسيم اعتلال في أصائله
 والروضعن مائه الفضي مبتسم
 نلهو بما يستميل العين من زهر
 والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
 كأنه رقّ لي فاعتلّ إشفاقا
 كما شققت عن اللّبات أطواقا
 جال الندى فيه حتى مال أعناقا
 ومن شعراء هذه المرحلة أيضا ابن حزم⁽²⁾ الذي يقول في مقطوعة يدافع فيها عن نفسه أمام مخالفيه الرأي منافحا عن توجهاته وقناعاته ومفتخرا بنفسه⁽¹⁾:

في ذخيرته: " كان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار العصر وفناؤها ملعبا لجياد النظم، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب إلى حلاوة عشرتها، وقد عشقها ابن زيدون وجرت له معها أخبار مشهورة، فكانت ولادة تداعبه بهجائها أو تضرب له موعدا كقولها⁽³⁾:

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسرّ
 وبني منك ما لو كان بالشمس لم تلح بالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر
 التي أحبها إلا أن هذا الحب الذي بدأ مبكرا لم يدم طويلا حين اتصلت بابن عبدوس وقطعت حبال الوصل بابن زيدون، غير أن تعلق ابن زيدون بها ظل شديدا، وظل شعره يفيض بحبه لها، أما هي فأخذت تهجوه هجاء مرا على الرغم من ذلك كان ابن زيدون يعبر عن كوامن نفسه وخبيئات أشجانه، ولواعج صبابته وشوقه لولادة سنين من حياته. فر ابن زيدون من السجن ثم اتصل بأبي الوليد بن جهور الذي تسلم الحكم بعد موت أبيه، فجعله وزيرا له وممثله لدى الملوك وخوفا ما وقع مع الأب ترك الشاعر قرطبة واتصل بالمعتضد بن عباد أمير اشبيلية، وبعدها أصبح ملازما للمعتضد بن عباد إلى أن اضطربت الأحوال بها وفي هذا الوقت تقدمت السن بالشاعر ابن زيدون وتعرض لأمراض باشبيلية وتوفي بها سنة 463هـ. ومن آثار الشاعر الخالدة ترك ديوانا شعريا في الغزل والرياء والوصف والشكوى والعتاب والمديح والاعتذار والشوق، ورسائل نثرية أهمها: الرسالة الهزلية التي كتبها على لسان ولادة بنت المستكفي إلى منافسه ابن عبدوس ساخرا منه ولادعا له ومتهكما، والرسالة الجديدة كتبها مستعظفا أبا الحزم جهورا أمير قرطبة، حين ألقى به في غياهب السجن (شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1989، ص281. جودت الركابي: في الادب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1966، ص164، 165).

¹-ابن زيدون: الديوان، شرح يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1994، ص194.

²-الشاعر ابن حزم الأندلسي: هو علي بن أحمد بن سعيد بن غالب بن صالح بن سفيان بن يزيد يلقب بالأندلسي والقرطبي، وبالفارسي نسبة إلى فارس ولد عام 384هـ بقرطبة من أب وزير له مكانته العليا بين حكام الأندلس، الذي رباه على حب العلم والدين والصلاح، بدأ حياته في قصور والده الوزير وأسرته الغنية، توفت والدته، فكفلته نساء القصر من الجوّاري والحافظات العالمات اللاتي كن يرعينه ويعلمنه القرآن واللغة والشعر. ويتوجبه من أبيه الذي كان حريصا

أنا الشمس في جو العلوم منيرة
ولو أني من جانب الشرق طالع
ولي نحو أكناف العراق صباية
ولكن عيبي أن مطلع الغروب
لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصبّ

5-عصر الموحدين(541-635هـ):

قامت هذه الدولة على أيدي قبائل المصامدة بالمغرب بقيادة محمد بن تومرت، ثم خلفه عبد المؤمن بن علي. عرفت بحرية البحث والفكر على نقيض ما كان سائدا في عصر المرابطين، من أبرز أعلامها: ابن طفيل، وابن رشد، وابن زهر الأندلسي، وكان أدباء الأندلس يجلّون أدباء المشرق، لأنهم أهل للاقتداء والاحتذاء، فقد كان النحوي الأندلسي البارع يلقب بسبويه الأندلس، والشاعر المجيد بمتنبي الأندلس، ومن مثلوا الشعر في هذا العصر: ابن الجنان الأنصاري⁽²⁾ وابن سهل الاشبيلي، والرّصافي

على تنشئته تنشئة قوية، ثم دفعه لمصاحبة العلماء؛ فاعترف من مناهلهم العذبة واقتدى بأخلاقهم الفاضلة، ولما تدهورت الأحوال، وانتشرت الفتن والاختلافات والمنازعات في العقائد، وظهرت الحروب الأهلية بين أهل الأندلس، أدى ذلك ابن حزم إلى دعوته الصريحة للمذهب الظاهري الذي يقوم على الكتاب والسنة والتمسك بالمعنى الظاهري لنصوصهما اللغوية، والأخذ بالمعنى الحقيقي من اللفظ دون النظر في التأويل، وتميز عصر الشاعر بازدهار العلوم وكان ابن حزم من الناشطين في مختلف المجالات الأدبية والفكرية، فتنوع نتاجه في اللغة والأدب والفقه وأصوله وأصول الدين، ونقد تصرفات أمراء الطوائف، وأبرز مثالبهم وبغيتهم، ولذلك تعرض للكثير من المضايقات ومحاولات النيل من علمه وأدبه فأحرقت كتبه وعانى من السجن والتغريب والاضطهاد وضياح ما ورثه، وأصدر المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية قرارا بهدم دوره ومصادره وحرق كتبه. تألم ابن حزم كثيرا لذلك فانشد:

إن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمينه القرطاس بل هو في صدري

يقيم معي حيث استقلت ركائبي وينزل أين أنزل ويدفن في قبري

ترك لنا الكثير من المؤلفات الثرة أبرزها: كتاب طوق الحمامة في الألفة والآلاف، وديوان شعري... (الذخيرة، ج1، ص167، نفح الطيب، ج6، 202، تاريخ الادب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، ص245. رسائل ابن حزم تحقيق إحسان عباس،)

¹-ابن حزم الظاهري: الديوان، تحقيق صبحي رشا عبد الكريم، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ط1، 1990، ص77.

²-ابن الجنان الأنصاري: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، المعروف بابن الجنان وقد تلقب بهذا اللقب عدد من أعلام الأندلس عاش في القرن السابع الهجري، عصر الموحدين، حيث شهد في حياته بالأندلس، مجد الدولة الموحدية كما شهد انحسارها وضعفها. ونلمس تعلقه الشديد بأبيه، وبزّه إياه، حين يصور ذلك في أطول قصيدة له في

البلنسي⁽¹⁾. ومن النماذج الشعرية في هذه المرحلة يقول ابن الجنان الأنصاري في موضوع النبويات⁽²⁾:

أهدى إلى خير الأنام تحيةً مُهدٍ هداه إلى السلام هُده

الديوان ويحدثنا عن وفاته، التي كانت أيام سقوط مرسية سنة 640هـ، حيث اشتدت شوكة الإسبان، وتسلطوا على الأندلسيين واضطر هو إلى الرحيل عنها إلى أوريولة، وترك أباه الذي تعلق بوطنه حتى اشتد مرضه بعد عام من رحيله ولم يمهله القدر بعدها

أب مصاب أبي السلو، فيا قلبي وجفني، قفا نيك الحبيب قفا
هجرت داري وأحبائي ومن شيمي وصل المهاجر إما خانني وجفا
ومضت بمحمد الأيام، فأصبح من علماء عصره المشهورين، من أهل الرواية والدراية، محدثاً، كاتباً، بليغاً، شاعراً، بارعاً، وصف بجودة الخط، وحسن الضبط، والحفظ والإتقان، وقد نقل عنه عدد من العلماء، روى ابن الخطيب أنه: خرج من بلده، حين تمكن العدو من بيضته عام أربعين وستمئة، واستقر بأرويله إلى أن استدعاه إلى سبته الرئيس أبو علي بن خلاص فوفد عليه وحظي عنده حظوة تامة ثم توجه إلى إفريقية (تونس) فاستقر ببجاية. روى عن علماء عصره أمثال: أبي الربيع بن سالم، وأبي الحسن بن سهل بن مالك، وأبي علي الشلوبين. ومن روى عنه قليل منهم: صهره أبو القاسم بن نبيل، أبو الحسن محمد بن زريق. لقد أحرز ابن الجنان مكانة وشهرة في عصره، كان من ذوي المواهب المزودة شاعراً وناثراً وجرت بينه وبين علماء وأدباء عصره مخاطبات ومكاتبات، ظهرت فيها براعته، وقد تناقلت أخبارها ونصوصها المصادر، ومنهم: أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني، وأبو المطرف بن عميرة المخزومي وابن المرباط وغيرهم. انفرد ابن الخطيب بذكر وفاته فقال: قال الأستاذ في الصلة: "انقل إلى بجاية، فتوفي فيها في عشر الخمسين وستمئة وقد وهم محقق عنوان الدراية، حين نسب إلى ابن الخطيب أن خروجه من بلده كان في أربع وستمئة، معتمداً في ذلك على الحلل السندسية الذي سقطت فيه لفظة الخمسين المضافة إلى لفظة "عشر"، حيث يقع التحريف في تاريخ الوفاة. (الخريدة 2/253)، جذوة الاقتباس 1/266) عنوان الدراية 349، الإحاطة 2/348، النفح 7/416.

¹-**الرصافي البلنسي:** هو أبو عبد الله محمد بن غلب الرفاه الأندلسي الرصافي البلنسي ولد في رصافة بلنسية، واليها ينسب ومنها خرج إلى مدينة مالقا وهو في العشرين من عمره، أين تلقى علومه وآدابه، وتفتحت مواهبه الأدبية والعلمية، وتفتت شاعريته، ولما دخل عبد المؤمن بن علي سلطان الموحدين الأندلس استدعى الشعراء وألقى الرصافي قصيدة بين يديه مطلعها:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

انتقل الشاعر إلى مدينة غرناطة واستوطنها واختلف على أمرائها إلى أن توفي سنة 572هـ في عمر لم يتجاوز السادسة والثلاثين عاماً.

²-ابن الجنان الأندلسي: الديوان، جمع وتحقيق: منجد مصطفى بهجت، مطابع التعليم العالي، جامعة الموصل، 1990، ص165.

بُشْرَاهُ قَدْ ظَفَرَتْ بِذَاكَ يَدَاهُ
يَجْزِي بِعَشْرِ كُلِّ مَنْ حَيَاهُ
يُحْيِي أَمِينَ الشَّرْعِ بَلْ أَحْيَاهُ

يَبْغِي الرِّضَا بِوَسِيلَةٍ مَقْبُولَةٍ
فَاللَّهُ قَدْ وَعَدَ النَّبِيَّ بِأَنَّهُ
أَكْرَمُ بِهِ عَمَّا أَبَانَ سَبِيلَهُ
6-عصر بني الأحمر(635-898هـ):

يعد هذا العصر الحلقة الأخيرة من تاريخ العرب والمسلمين بالأندلس، ففي هذا العصر تقلص الوجود الإسلامي وانحصر في الجنوب حيث غرناطة، وضعفت شوكتهم، وأصبحوا عرضة للتهديد من قبل فريناند وإيزابيلا الذين أكثروا من الحملات العسكرية حتى تمكنوا من الاستيلاء على المدن والحصون وهزموا المسلمين هزيمة مروعة سنة 898هـ/1492م وقام آخر ملوك بني الأحمر أبو عبد الله بتسليم مفاتيح المدينة إلى فريناند وإيزابيلا⁽¹⁾.

يعد هذا العصر أسوأ عصور الأندلس سياسياً، لكن زهت من ناحية العمران، تم تشييد قصور الحمراء التي لا تزال شاهدة على ذلك العصر. ومن أبرز أعلام الشعر في هذه المرحلة نذكر: الشاعر علي بن محمد بن الجيّاب، والشاعر ابن زمرّك (ت796هـ)⁽²⁾ الذي يعد آخر علم من أعلام الشعر الأندلسي في غرناطة، جمع السلطان يوسف الثالث شعره

¹-راغب السرجاني: قصة سقوط الأندلس، مؤسسة اقرأ للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2011، ص677.

²-ابن زمرّك الأندلسي: هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد المعروف بابن زمرّك، ولد بغرناطة وعرف بين أهله بحبه للعلم وأهله وأخذ على نفسه بملازمة حلق التدريس. تتلمذ على كبار الأساتذة في عصره من غرناطة والمغرب، كان له طموح سياسي، فاجتهد حتى أصبح وزيراً بديلاً لأستاذه ابن الخطيب، توفي سنة 795م مقتولاً. جمع السلطان يوسف الثالث شعره وموشحاته في كتاب: البقية والمدرّك من كلام ابن زمرّك، وصفه المؤرخون بأنه كان كثير التأمّر والكيد على الآخرين لتحقيق مآربه السياسية، إلا أن ذلك لن ينقص من صفات حملها كالذكاء، وحلو المعاشرة، والحديث الشيق، وخفة الروح، فضلاً عن أنه كان شاعراً وجدانياً محبداً وبرع في فن التوشيح، وكان خطيباً مفوهاً وناقداً ثاقباً، وكان كلفاً بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة، نظم في كل الفنون الشعرية: فأكثر المديح في سلطان غرناطة، وله في التهنية والاعتذار، والمديح النبوي، والرثاء، والخمر، والتصوف (الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص141، الزركلي، الأعلام، ج7، ص154، نفح الطيب، ج7، ص165).

في مجلد سماه: البقية والمدرک من کلام ابن زمرك، ونقشت أشعاره على جدران قصور
الحمراء لتكون مثالا حيا لشعر النقوش في الأندلس. يقول ابن زمرك في مدح الخليفة
الغني بالله⁽¹⁾:

لک الخير يا مولاي ابشر بعصمة	عقدت مع الأيام في حفظها صلحا
وعافية في صحة مستجدة	تجدد للدين والسعادة والنجحا
ووجه التهاني مشرق متهلل	وجو الأمانى بعدما غام قد أضحى
وقد ظهرت للبرء منك علامة	علامتك العليا تقول لنا صحا

¹-ابن زمرك: الديوان، تحقيق محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص374.

الشعر الأندلسي بين التقليد والتجديد.

تمهيد:

اقتضت طبيعة التطور والتغير في الحياة الأندلسية العامة، وما صاحب ذلك من تغير في نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، فضلاً عن البيئة الطبيعية المختلفة، أن يتناول الشعر الأندلسي موضوعات شعرية قديمة بطريقة مختلفة تُغاير الأصل وتتفوق عليه في بعض الأحيان، وبخاصة في الحقب التي جاءت بعد الحقب الأولى من حياة ذلك الشعر، فظهرت في بعض موضوعاته سماتٌ مُطوّرة، على الرغم من أن الشعر المشرقي لم يكن يخلو منها مثلما سيتضح.

إلا أنها في الأندلس أخذت تكتسب ملامح جديدة ميّزتها عما كان في المشرق، وربما بدأ ذلك منذ أن أخذ الشعر الأندلسي الذي رسّخ أصوله شعراء نبتوا في البيئة الأندلسية بالظهور، وذلك في حدود سنة مائتين للهجرة، فالشعر الأندلسي من الناحية الزمنية بدأ يتكوّن حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديدات شعراء العصر العباسي، وكان الأندلسيون حينئذٍ يلتفتون في كلّ شيء إلى المشرق، فقد اتّخذوا شعر المُحدثين مثلاً يقلّدونه ومنازاً يهتدون به، أي أن الشعر المُحدث مثل النموذج الكبير الذي استوحاه في أشعارهم⁽¹⁾.

وبعد حقبة المحاكاة بات للتقلبات المختلفة التي طرأت على الحياة الأندلسية العامة أثرٌ كبيرٌ في نقل الشعر من حاله القديم إلى حال جديد. فعلى الرغم من أن معظم الموضوعات الشعرية التي رسخت في نتاجات المشاركة السابقة قد عُرِفَت عند الأندلسيين، ونظموا فيها، كالغزل، والمدح، والرثاء، والهجاء، وغير ذلك من الموضوعات الشعرية إلا أنّهم لم يذروها على ما كانت عليه، بل خلّعوا عليها من أذواقهم الفنية الخاصة شيئاً كثيراً، ونالها من بيئتهم الجديدة ما أكسبها طابعاً جديداً خاصاً بهم، على الرغم من محافظتها

¹ -إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1969، ص 47 .

على معظم خصائصها الموروثة، وقد برزت فيها . على إثر ذلك . بعض ملامح "التجديد" التي أخذت نصيبها من عناية الدارسين المحدثين.

فرصدوا ما تجلّى من تجديد في الموضوعات التقليدية التي تمثّلت بموضوعي (الغزل، والرياء) مثلما رصدوا ملامح التجديد التي برزت فيما أسمته الدراسة بالموضوعات الموسّعة⁽¹⁾ التي يراد بها ذلك النمط من الموضوعات الشعرية الذي كان موجوداً عند الشعراء المشاركة قبل الأندلسيين؛ إلا أن أبعاده وحدوده في الأندلس اتّسعت وموضوعاته تفرّعت وتطوّرت على الرغم من وجود إرهاباته الأوليّة في حقب مشرقية سابقة لهم، ولم تُعطَ تلك الموضوعات صفة الجِدّة التي تحيل على الابتكار غير المسبوق؛ لأنّ لتلك الموضوعات أصولاً قديمة ضاربة بجذورها في أرض التراث الشعري العربي في المشرق، على أنها قد أُدخلت عليها بعض التجديدات التي أكسبتها صفة التَجَدُّد، والتَطَوُّر، والتوسّع لا صفة الجِدّة والغرابة.

1- الشعر الأندلسي بين التقليد والمحاكاة:

من الناحية الزمنية استقرت بالأندلس الدولة الأموية في القرن الثاني من الهجرة الذي يبدأ باعتلاء عبد الرحمن الداخل هرم السلطة والإمارة، حيث عمل هو وأبناؤه على منافسة الخلافة العباسية في مختلف مظاهر الحياة، وكان التقليد لها في كل شيء لأن الخلافة الأموية بالأندلس كانت تبحث عن صورة اكتمالها في الخلافة المشرقية ومنها استمدت كل طرق تنظيمها وإدارتها ودواوينها⁽²⁾ فالأدب الأندلسي هو كذلك تأثر بصنوه المشرقي باعتبار أن التطلع إلى المشرق كان يدفع برقي الشعر في هذه البيئة الجديدة،

¹- هذا النمط من الموضوعات أطلق عليها صفة "الموسّعة"، وقد تمثّل هذا النمط من الموضوعات بأربعة فنون هي: شعر الحنين، وشعر الطبيعة، ورياء المدن والممالك، والشعر التعليمي.

²- حميدي خميسي: الحركة الأدبية في اشبيلية لزمان بني عباد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، دمشق، 1984، ص 63.

وهذا عبد الرحمن الداخل لما أحس بالغبرة وحن إلى وطنه الأول صادف نخلة فألهمته القول وحركت شجونه وشحذت قريحته فنطق يقول:

يا نخل أنت فريدة مثلي في الأرض نائية عن الأهل
فابكي وهل تبكي مكمة عجماء لم تجبل على خبل
لو أنها عقل تلبكت ماء الفرات ومنبت النخل

لكنها حرمت وأخرجني بغضي بني العباس عن أهلي⁽¹⁾. والشاعر الأندلسي في هذه المرحلة يتخذ من الشعراء المشاركة مثالا له، يحتذي بالبحثري وأبي نواس وابن الرومي والمتنبي، وفي الكتابة يتبع أسلوب ابن المقفع والجاحظ وابن العميد، فهم يقلدون إخوانهم في المشرق في الفنون والمذاهب الأدبية⁽²⁾. ويذهب ابن بسام في ذخيرته في قوله: "أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة حتى لو نعق في تلك الأفاق غراب أو طن بأقصى الشام أو العراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما"⁽³⁾.

وبعد الإعلان عن الخلافة الأموية في الأندلس في عهد الناصر ومن جاء بعده بدأت تتشكل الشخصية الأندلسية ولم يعد يشغلها التقليد بقدر ما يشغلها التنافس في مختلف مظاهر الحياة الأدبية والعلمية، إلى درجة أصبح المشرق بدوره يتطلع إلى الأندلس، ويرحب بكل ما فيه من علم فن وأدب، وذلك لما أرسته محاولات العلماء والمفكرين والأدباء الأندلسيين من دعائم ثقافية وفكرية وإبداعية، وهي الصورة التي اكتملت بحلول القرن الخامس الهجري الذي يعرف بأزهى العصور الأندلسية فكريا وأدبيا نظرا

¹-المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج3، ص332.

²-عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، ص325.

³-ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000، ج1، ص7.

لتشجيع الخلفاء في دويلاتهم للحركة الأدبية الشيء الذي عجل باكتمال الشخصية الأندلسية في كل المناحي، وعكست النضج الثقافي والفني في الأندلس.

في هذا العصر يكتب ابن حزم رسالته في تفضيل أهل الأندلس التي أوردها المقرئ في كتابه نفح الطيب، وقد جاءت كرد فعل عن رسالة أبي علي الربيب القروي الذي ذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسير ملوكهم⁽¹⁾ وابن حزم أراد ان يتميز بمذهبه الظاهري كبديل عن المذهب المالكي السائد في الأندلس وهي محاولة منه للتجديد.

2-الشعر الأندلسي بين الاستقلال والتميز:

هي المرحلة التي اكتملت فيها الشخصية الأدبية الأندلسية، وتميزت عن كل ما هو مشرقي، وأصبح للأندلسيين مدارس مستقلة وضعت لها أسس فنية بعدما كانت تقتدي بكل ما هو وافد من المشرق، تم ذلك بجهود الأعلام الأدبية نذكر منهم: أبا عامر بن شهيد صاحب رسالة التوابع والزوابع التي عارض فيها أدباء المشرق في الشعر والنثر، والكاتب ابن حزم الظاهري الأندلسي صاحب طوق الحمامة، فقد استطاعا أن يؤسسا مبادئ المدرسة الأندلسية⁽²⁾. وظهر التميز كذلك في كثرة التأليف في مختلف العلوم والفنون من تاريخ وجغرافيا، عمران، وأدب وشعر، وبذلك أصبح للأندلسي كيانه الخاص وذوقه الفني الذي يستجيب لبيئته وثقافته الأندلسية المستقلة.

3-الموضوعات التقليدية:

¹-رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط2، بيروت، لبنان، 1981، ص39.

²-مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، 1978، ص45.

تتوّعت الموضوعات في الشعر الأندلسي، فجمع بين الموضوعات التقليدية للشعر من مدح، وغزل، وغيرها، إلى جانب موضوعات توسع بها الشعراء كرتاء المدن، والشعر التعليمي، وكذلك فإن الاهتمام بالغناء أدى إلى وجود فنون شعرية مستحدثة أهمها: الموشحات، والأزجال، ومن هذه الموضوعات.

1.3-المدح: هو من فنون الشعر التقليدية التي نظم فيها الأندلسيون الشعر وأكثروا منه، بسبب اتصالهم بالحكام الأندلسيين على اختلاف المراحل السياسية التي مرّت بها الأندلس، ومن أبرز الشعراء: يحيى بن حكم الغزال، والأعمى التطيلي. وابن عبد ربه الأندلسي، وابن زيدون، وابن خفاجة، وأبو البقاء الرندي وابن هانئ الأندلسي، وابن درّاج القسطلّي، وابن حمديس الصقلي، ابن جبير، وأمّية الداني، وعبّاس بن فرناس يوسف الثالث، وأبو حيان الأندلسي، وأبو إسحاق الألبيري، وابن الزقاق البلسي، وابن خفاجة.. وابن الحداد القيسي، وابن خاتمة الأندلسي، وعلي الحصري القيرواني، وابن شرف القيرواني، وابن زمرك، وابن سهل الأندلسي، وابن شهاب، وابن شهيد، وابن معتوق...

حافظ الشعراء في المدح على الأسلوب القديم، فاعتنوا بالاستهلال وحُسن التخلُّص، وربما بدأوا قصائدهم بوصف الخمر أو الطبيعة، أو بعذل الزوجة لزوجها لسفره للقاء الممدوح كما في شعر ابن درّاج (ت421هـ)، وكذلك لم يغرقوا في استعمال الغريب من اللفظ.. ما عدا ابن هانئ (ت362هـ) الذي حاول تقليد المتنبي وأكثر المبالغات.

2.3-الرثاء: لم يختلف رثاء الأندلسيين كثيراً عن رثاء المشارقة، فكانوا يتفجّعون على الميت، ويُعظّمون المصيبة، وكثيراً ما كانوا يبدؤون مرثياتهم بالحكمة مثلما نلتمسه في الشاعر الأندلسيّ ابن عبد ربه (ت328هـ).

3.3-الزهد: مع أنه ظهر في القرن الخامس الهجري في ظل دول الطوائف عدد كبير من الشعراء الذين نظموا في الزهد، كأبي إسحق الإلبيري(ت460هـ)، وعليّ بن إسماعيل القرشي الملقّب بالطليطل، والذي كان أهل زمانه (المئة السادسة) يشبهونه بأبي العتاهية. ولئن كان الزهد دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة، فإن التصوّف شظف وخشونة وانعزال عن الخلق في الخلوة إلى العبادة، ويتّخذ الشعر الصوفي الرمز أداة للتعبير عن مضمونه وحقائقه، ومن متصوفة الأندلس ابن عربي (ت638هـ) وقد لقب بمحيي الدين وبالشّيخ الأكبر وابن سبعين (ت669هـ) وكان يلقب بقطب الدين.

4.3-الغزل: خاض الأندلسيون كثيرا في هذا الموضوع، مما أنتج لنا كمّا هائلاً من القصائد الغزلية التي حملت . في عدد منها . ملامح تجديدية، ويبدو أن كثرة قصائد الغزل التي استأثرت باهتمام الدارسين ناجمة عن أسباب عدة، لعلّ ظاهرة الاختلاط بين الرجال والنساء في المجتمع الأندلسي تأتي في مقدمتها، فضلا عن إطلاق الحريات الفردية، وعدم فرض الرقابة عليها، مضافا إلى ذلك جمال الطبيعة الأندلسية.

وإجمالا لما ذكر آنفا فإن «كلّ ما في الأندلس يدعو إلى الغزل والنسيب، فمن طبيعة فتّانة، إلى حضارة وعمران، إلى حدائق ورياض، إلى مجالس للهو والخمر والغناء، إلى سبي متواصل وأسواق للنخاسة رائجة، يُباع فيها الجوّاري والغلمان بأثمان بخسة لكثرتهم، فكان من ذلك أن أمعن أهل الأندلس في حياة النعمة والترف، وأخلدوا إلى الحبّ والغزل، وكان للشعراء قسط وافر من هذه الحياة الرخيّة، فتغزّلوا وأفرطوا في التشبيب»⁽¹⁾. كلّ هذه الأسباب مجتمعة عملت على إرهاف مشاعر الشعراء الأندلسيين وأحاسيسهم، ودفعتهم لتذوق مواطن الجمال، ومفاتيح الحسن، والتعبير عنها بقصائدهم

¹ -بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت، لبنان، ط6،

1968، ص 68، 69.

الغزلية التي أكثروا منها كثرة مفرطة حتى عُدَّ موضوع الغزل من أهم الموضوعات التي ألّفت النصيب الأكبر من دواوين الشعراء الأندلسيين عامّة⁽¹⁾؛ إذ كان من أكثر موضوعات الشعر التي طرقها الأندلسيون فما من شاعر من شعرائهم إلّا وقد أدلى بدلوه فيه لذا فلا عجب أن يأتي موضوع الغزل في صدر الموضوعات التقليدية من حيث اهتمام الدارسين المحدثين به، وعنايتهم بسبر أغوار قصائده؛ لاستنباط ملامح التجديد التي برزت فيها.

إنّ تطوّر وتوسّع وتجديد هذه الموضوعات الفرعية في الغزل الأندلسي كان مرده إلى تطوّر الحياة الاجتماعية في المجتمع الأندلسي المتعدّد العناصر بعد أن ذابت العناصر المتباينة في بوتقة الشخصية الأندلسية الجديدة التي سرى في نفسها حبّ الجديد؛ لأنّها تأتت من جيل جديد نشأ في أوربا لم يكن عربيّاً خالصاً، فيستمسك بالقديم استمسك العرب الصرحاء الذين اقتحموا الجزيرة في عهد الفتح، وإنّما كان مزيجاً من عناصر مختلفة اختلطت بالتزاوج والسكنى مثلما تقدّم، فكان فيه العربي والبربري، والقوطي والرومي، واليهودي واللاتيني، فكان على أساس ذلك يملك عقلية مغايرة لعقلية الجيل البدوي الأوّل، وتفكيراً غير تفكيره، وحضارة تختلف عن حضارته⁽²⁾.

من فنون الشعر التقليدية التي نظم فيها الأندلسيون الشعر، فأجاده كثير من الشعراء، وعبروا عن حبّهم وألمهم من الفراق، وقد تأثر هذا الموضوع الشعري بالقدماء من جهة، وكانت له خصوصيته من جهة أخرى؛ لأن الشاعر الأندلسي متأثر بالطبيعة الأندلسية مما أثر في الشعر ألفاظاً وبناءً، ومن أشهر قصائد الغزل قصيدة ابن زيدون في حب ولادة بنت المستكفي.

¹-أحمد هيكّل: الأدب الأندلسي من الفتح حتّى سقوط غرناطة، ص 124.

²-بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص 38.

هذا وعرف عرف الشعر الأندلسي موضوعات مَوْسَعَة شَكَّلَت ظاهرة واسعة، واحتلَّت حيزًا واسعًا من عناية الدراسات الحديثة، والتي تمثلت بموضوع وصف الطبيعة، وموضوع رثاء المدن والممالك الزائلة، وموضوع الغربة والحنين، كما استحدث الأندلسيين موضوعات شعرية كالموشحات، والأزجال، وشعر الاستصراخ والاستغاثة.

شعر الطبيعة في الأندلس.

تمهيد:

منح الله -عز وجل- الأندلس طبيعة فاتنة كانت بها أغنى بقاع المسلمين منظرا، وأوفرها جمالا، وكانت بيئة عجيبة التنوع فهي «شامية في طبيعتها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكاؤها أهوازية في عظم جناتها صينية في جواهر معادنها عدنية في منافع سواحلها»⁽¹⁾.

لذلك يعد شعر الطبيعة ذا أهميته خاصة في الشعر الأندلسي يعزز ذلك عمر الدقاق بقوله: « وصف الطبيعة بوجه خاص أصبح له شأن عند عرب الأندلس لم يكن له مثله عند أقرانهم في المشرق؛ وذلك استجابة منهم لمؤثرات البيئة وما انطوت عليه بلادهم من مشاهد الفتنة ومظاهر الحُسن، وهكذا انفعلت نفوسهم بما استشعرت حولها من عناصر الجمال، وفاضت قرائحهم ببديع القول تجاه تلك الربوع التي شغفوا بها، وهكذا دخلت الطبيعة حياة الأندلسيين، وخالطت نفوسهم وتغلغلّت في أشعارهم»⁽²⁾.

1-شعر الطبيعة:

الأندلس بلاد الطبيعة الجميلة الثرية الساحرة، والأندلسيون قوم يغلب عليهم الأدب، ويأسرهم الشعر تفتنوا في قوله وإنشائه، فكان للطبيعة نصيب وافر من العناية بها، والافتتان في وصفها حدائق وبساتين، ورياض وأزاهير، ووردًا ونُورًا، وحمائم وأطيّارًا، وجداولَ وأنهارًا، وبركًا وسواقي، وخُضرًا وأثمارًا، وزوارق ومراكب، وتلوجًا وأمطارًا، وكلّ ما

¹-الحميري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت،

ط2، 1984، ص 33.

²-عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق، بيروت، لبنان، دط، 1975، ص ص 206 ، 207.

يخطر على النفس من جميل يتّصل بالطبيعة وصفوه وصفًا بديعًا، وصوّروه تصويرًا فائقًا مختلف الألوان منمنم الأصباغ، فيه الفاقع الزاهي، ومنه الداكن الوقور⁽¹⁾ .

إنّ شعر الوصف بصورة عامة أو وصف الطبيعة بوجه خاص أصبح له شأن عند عرب الأندلس لم يكن له مثله عند أقرانهم في المشرق؛ وذلك استجابة منهم لمؤثرات البيئة وما انطوت عليه بلادهم من مشاهد الفتنة ومظاهر الحُسن، وهكذا انفعلت نفوسهم بما استشعرت حولها من عناصر الجمال، وفاضت قرائحهم ببديع القول تجاه تلك الربوع التي شُغِفوا بها، وهكذا دخلت الطبيعة حياة الأندلسيين، وخالطت نفوسهم وتغلّغت في أشعارهم⁽²⁾.

يعد موضوع الفجريات من الموضوعات الشعرية الطريفة في موضوع وصف الطبيعة إبان حقبة العباديين «كان من عادة بعض الشعراء، احتساء المدامة في أول الصباح، ومع انبثاق أول خيط نور من أعماق الأفق، فنشأ عن مجالس الفجر الخمرية هذه لونٌ طريفٌ من ألوان الوصف، وهو الفجريات، هذا الفن اتسع وازدهر بين شعراء اشبيلية وكثر القول فيه»⁽³⁾. يقول ابن حَمْدِيس (527هـ)⁽⁴⁾ في تصوير الفجر⁽⁵⁾:

وليلٍ رَسَبْنَا في عُبَابِ ظَلامِهِ إلى أن طفا للصبح في أَفْقِهِ نَجْمٌ
كَأَنَّ انْصِدَاعَ الْفَجْرِ نَارٌ يُرَى لَهَا وراء حجابٍ حَالِكٍ نَفْسٌ يَسْمُو

¹-مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص 341 .

²-عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، ص206.

³-السعيد محمد مجيد: الشعر في ظل بني عباد، دار الكتب الوطنية، الجزائر، دط ، 1972، ص121.

⁴-الشاعر ابن حمديس الصقلي: هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي، شاعر مبدع، ولد وتعلم في جزيرة صقلية، ورحل إلى الأندلس سنة 471هـ، فمدح المعتمد بن عباد، فأجزل له العطايا. انتقل إلى إفريقية سنة 484هـ، فمدح صاحبها وأبناءه، فقد بصره آخر أيامه وتوفي سنة 527هـ، تنتظر ترجمته في: المطرب، ص 54-57، والأعلام، ج3، ص 274 .

⁵-ابن حمديس: الديوان، تقديم إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، ص 406، 407.

وتحسبه طفلاً من الرُّوم طَرَقَتْ به من بناتِ الزنج قائمةً أم
أُغْلِمَ في أحشائها أن عُمَرَه لدى وضعه يومَ فشِيَّه الوهم
ومن الملامح التجديدية التي تجلّت في موضوع (وصف الطبيعة) في الأندلس
إبان حقبة المرابطين والمُوحّدين، وقد تمثّلت في ظهور الأدوات الحربية وصور الجند
والحرب ومآسيها في وصف الشعراء للطبيعة، وقد علل ذلك بالوضع السياسي للأندلس
في العهدين المرابطي والمُوحّدي، والمعاناة المستمرة للحرب أو توقعها، والمعارك الكثيرة
القائمة بين المسلمين والنصارى حيناً، وبين المسلمين أنفسهم حيناً آخر، مما أدى إلى
اصطباغ الكون كله في نظر الشعراء بلون الدماء والنزف⁽¹⁾. يقول القاضي عياض⁽²⁾
(ت544هـ)⁽³⁾:

انظر إلى الرّج وخاماته تحكي وقد ماستُ أمام الرياح
كتيبة حمراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح
لم يعد احمرار الشقائق الجميل الذي طالما شُبّهت به خدودُ العذارى سوى جرح
نازف من وقع السيوف والرماح. يظهر ذلك بوضوح أن احمرار الشقائق الجميل الذي
طالما شُبّهت به خدود العذارى لم يعد سوى جرح نازف من وقع السيوف والرماح .
نقف عند قطعة شعرية أخرى يقيم فيها الشاعرُ حرباً بين جيشين من الترك والزنج،
فيها الكر والفر، والتقدم والانسحاب، حتى تحقّق النصر أخيراً للترك. يقول فيها⁽⁴⁾:

¹-السعيد محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والمُوحّدين بالأندلس، دار الراية للنشر، الجزائر، 2008، ص122.

²-أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليَحْصِي السَّبْتي، ولد بسبّنة سنة 476هـ وكان إمام وقته في الحديث والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم، تولى القضاء بقرطبة سنة 532هـ، له تصانيف عدة منها : (مشارك الأنوار) و(التبهيّات)، توفي سنة 544هـ ينظر: وفيات الأعيان ج3، ص483-485 .

³-ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج3، ص484.

⁴-ابن سعيد الأندلسي: رايات المُبرّزين وغايات المميزين، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات، دمشق، ط1، 1987، ص184 .

قاموا فصقوا جيوشا راقَ منظرها تركا وزنجا على أرضٍ من الأدم
فحاربوا فإذا بالترُك قد هُزموا بجيشٍ زنجِفيٍّ غيرٍ منهزمٍ
ثم استقلَّ رجالُ التركِ فارتجعوا وحاربوا حربَ أنجادٍ ذوي هممٍ
الحربُ تُبكي عيونَ الناظرين بها وهذه الحربُ تبدي ثَغَرَ مُبتسمٍ
تزدحم الأبيات بالجند والمحاربين لكنها في الحقيقة ليست سوى صورة النارج، ومن بيته
الأخير يتَّضح مُرادُه.

يهتم الشاعر بوصف الطبيعة، وبخاصة الأزهار، إذ عُنِيَ بها، وبأوصافها في
الربيع، وبإقامة المعارك المُخَيَّلة بينها، على نحو يزيد فتنته ومن أوصافه التي أقام فيها
معركة طريفة بين الأزهار قوله (1):

ثم نادى الخيريُّ في سائر الزَّهْمِ — رِ فوافاهُ جَحْفَلُ جرارٍ
فاستجاشوا على محاربةِ النَّزْرِ جسٍ بالحَرَمِ الذي لا يبارٍ
عند ابن حمديس أوصافاً موضوعيّة جديدة . على حد تعبيره . في موضوع
(الزهرِيَّات) تمثَّلت في رثائه لباقة من الزهر أصابها الذبول فقال يتحرَّق حزناً وأسىً
عليها (2):

يا باقةً في يميني للردى بُذِلَتْ أذابَ قلبي عليك الحُزْنُ والأسَفُ
ألم تكوني لتاجِ الحُسْنِ جَوْهَرَةً لما غرقتِ، فهلاً صانك الصَّدَفُ
ومن شعر الطبيعة الأندلسي ما ذاع من هذا اللون من الشعر الذي تُصاغ فيه
مقطوعات قصار تسمى النُورِيَّات صياغة بالغة الإتقان فيخرج الشاعر في كلِّ منها نُورة

¹—أحمد بن محمد بن الحسن الضَّبِّي: ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1998،
لبنان، ج1، ص 74.

²—ابن حَمْدِيْس: الديوان، ص 315 .

جميلة عاطرة تخلق النشوة ويسميها بأسماء الأزهار مثل القرنفل والريحان والبحار والورد والنرجس⁽¹⁾.

وثمة موضوع طريف أوحى به تعلّق الشعراء بأنهار بلادهم، ونعني به وصف النزهات النهرية التي كان الشعراء يقومون بها مع رفاقهم حيث تحملهم القوارب في النهر رائحة غادية، ومعهم أهل الطرب والظرفاء ومن حولهم الطيور تصدح والأشجار والأزهار تعبق برائحتها، في جوّ يبعث في النفس الطرب والطمأنينة. ولأبي المطرّف بن عميرة (ت658هـ)⁽²⁾ وصف رحلة نهرية قام بها مع رفاقه في جزيرة شَقْر⁽³⁾ حين ركبوا زورقاً ومعهم شبّاك الصيد فقضوا يوماً جميلاً بين الصيد واللهو يقول⁽⁴⁾:

يوم أَرَانَا الحَسَنَ فِي النَّهْرِ الَّذِي	قَدْ طَابَ مِنْهُ مَوْرِدٌ أَوْ مَشْرَبٌ
وَقَدْ اِمْتَطَيْنَا زورِقًا فِيهِ فَقُلْ	صَبَحٌ تَمْشَى فِي سِنَاهُ غِيَهَبٌ
فَتَرَاهُ طَوْرًا طَائِرًا وَلَرِيْمًا	ضُمَّتْ جَنَاحَاهُ إِلَيْهِ فَيُجَنَّبُ
تُبْدِي لَنَا سَمَكًا أَرَادَتْ أَنْ يَرَى	حُسْنًا بِهَا فَلَجَلَهُ تَتَقَلَّبُ
فَكَأَنَّهَا جَمَدَتْ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي	حَصْبَاؤُهُ مِنْ صَفْوِهِ لَا تُحْجَبُ
يَا نَهْرَ شَقْرٍ فَيْكَ أَدْرَكْتُ الْمُنَى	فَلَأَنْتَ مِنْ نَهْرٍ إِلَيَّ مُحَبَّبُ

كان هذا اللون الطريف أعني وصف الرحلات أو النزهات النهرية؛ مما أوحى به بيئة الأندلس بوفرة ما فيها من وديان وجداول وأنهار وغير ذلك مما تزخر به طبيعتها

¹-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص80.

²-الشاعر أبو المطرّف: هو أبو المطرّف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي القاضي، مولده بجزيرة شَقْر سنة 580هـ، وقد سكن بلنسية، كان كاتباً وشاعراً توفّي سنة 658هـ. ينظر: الْمُقْتَضَب من تُحفة القادم، ص145، 150، ونفح الطيب، ج1، ص313، 315.

³-شَقْر بفتح أوله وسكون ثانيه: جزيرة في شرقي الأندلس وكانت من أنزه بلاد الله وأكثرها روضة وشجراً وماء، ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص354.

⁴-فوزي عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، ط1، 2007، ص146.

الغنيّة بخيراتها وبمناظرها الساحرة الخلّابة، وقد أكثر منه الشعراء مما يدلّ على أنه تأصّل كموضوعٍ بارزٍ في شعر الطبيعة في عصر الموحدين⁽¹⁾.

2- أثر الطبيعة في الشعر الأندلسي:

لقد لحق شعراء الأندلس في شعر الطبيعة شعراء المشرق، ثم تقدّموا عليهم فيه. والملاحظ على ما خلفوه من شعر في هذا الفن أنهم لم يقفوا به عند اتجاه واحد، وإنما نرى لهم فيه اتجاهات شتى، ولعل منشأ هذا التنوع في الاتجاهات، راجع إلى أنّ محبتهم لطبيعة الأندلس الجميلة كانت عميقة الجذور في نفوسهم، ومن ثمّ فإنهم كانوا كلما التقوا بها أو واجهوها في مكان أو موقف ما، هزّت مشاعرهم وشاعريتهم، وألهمتهم من معانيها ما لا يملكون له دفعا إلّا بالتعبير عنه تمجيدا لهذه الطبيعة وتغزلا بها. ومع تعدد الاتجاهات في شعر الطبيعة الأندلسي.

3- خصائص شعر الطبيعة:

هناك خصائص عامة تجمع بينها ثم ينفرد كل اتجاه بعد ذلك بسمات خاصة تقتضيها طبيعته. وسوف نشير إلى أهم السمات العامة المشتركة، وفيما يلي إجمال لذلك:

1.3- شعر الطبيعة مرآة صادقة لطبيعة الأندلس وسحرها وجمالها لان الشعر دائما يعكس البيئة الاجتماعية والطبيعية لذلك يعد صورة أمينة دقيقة لبيئة الأندلس⁽²⁾ هذا وقد وصف الأندلسي الديار والمدن وجمال الطبيعة بها، وهذا ابن زيدون الذي تغنى بجمال قرطبة والزهاء، وتغنى الرصافي البلنسي ببلنسية، وابن سفر المريني باشبيلية.

2.3- أصبح شعر الطبيعة يحل محل المقدمات الغزلية في قصائد المديح وغيرها، وهذا لشدة تعلق الأندلسي بالطبيعة.

¹-المرجع نفسه، ص 137.

²-مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص 255.

3.3-ملاحظة التداخل الواضح بين وصف الطبيعة وفنون الشعر الأندلسي وبخاصة فن الغزل فكثيرا ما تداخلت الطبيعة والحب في شعر ابن زيدون وباقي شعراء الغزل، فصوروا المرأة بجمالها على أنها صورة من جمال الطبيعة وتجلياتها، وصاغوا من الورد حدودا، ومن النرجس عيونا ومن الآس أصداغا، ومن السفرجل نهودا، ومن قصب السكر قدودا، ومن قلوب اللوز سرر التفاح مناسب...

3.4-خرج شعر الطبيعة الأندلسي عن مألوف الشعر العربي من حيث نظام القصيدة وبنيتها، حيث لم يترك الشاعر لمحة من لمحات الطبيعة أو زاوية من زواياها إلا وطرقها⁽¹⁾. وإلى درجة أصبح شعر الطبيعة الأندلسي يطلق على كثير من التصنيفات الخاصة بالأزهار والورودن وذلك لكثرة الثروة اللغوية حوله وأصبح لها معجم خاص، ومن نماذج ذلك اسم الروضيات، والزهریات، والثمریات، والمائیات، والتلجیات⁽²⁾.

3.5-تشخيص الطبيعة في الشعر الأندلسي وتصويرها بالإنسان الذي يدب نشاطا وحركة، حتى بدت ناطقة عبر التشخيص والتجسيم ومتألقة تشاركهم الحياة الوجود⁽³⁾.

4-ابن خفاجة⁽⁴⁾ شاعر الطبيعة:

¹-المقري: نفح الطيب، ج5، ص87.

²-مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي، ص256.

³-المرجع نفسه، ص255 .

⁴-ابن خفاجة الأندلسي: هو أبو إسحاق بن أبي الفتح عبد الله بن خفاجة الهواري الشقري الأندلسي، ولد في أسرة ميسورة الحال وعلى جانب من العلم والأدب عاش في عصر الطوائف والمرابطين وقضى معظم حياته في ضيعة له قرب بلدة، ينظم فيها الشعر، ولم يقصد الملوك والأمراء، ذاع صيته عند المرابطين ومدحهم إعجابا بهم، فنال حظوة عندهم، عاش حياته ولم يتزوج وأحاط ابن خفاجة بفنون عصره وعلومه، كالحديث واللغة والفقه وبرع في قول الشعر ونبغ فيه، هو شاعر وجداني تميز شعره بالعذوبة والسهولة، نظم في فنون الشعر كله من مديح وثناء وغزل ونسيب وعتاب وحكمة وزهد وإخوانيات إلا انه نبغ في فن وصف الطبيعة حتى سمي بجنان الأندلس

أبداع الشاعر ابن خفاجة في رسم الطبيعة بريشة فنان مقتدر واستحضر كل ما يحتاج إليه من ألوان، مما جاءت أبياته لوحة نضرة تعجب السامع وتبهر الناظر، أكثر في شعره من التشابيه العذبة، والاستعارات الجميلة والصنائع الخفيفة، والموسيقى المنسابة عبر صور ممزوجة بالمشاعر الإنسانية. ومن نماذجه الشعرية قصيدة الجبل التي يتأمل فيه الطبيعة السابحة حوله في ظلمة الليل وقد تخيل الجبل يؤنسه، فأفضى إليه يناجيه ويصفه، يقول فيها⁽¹⁾:

يطاول أعنان السماء بغارب	وأرعن طماح الذؤابة باذخ
ويزحم ليلا شهبه بالمناكب	يسد مهبّ الرياح عن كلّ وجهةٍ
طوال الليالي مفكر بالعواقب	وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه
لها من وميض البرق حمر ذوائب	يلوث عليه الغيم سود عمائم
فحدثني ليل السرى بالعجائب	أصخّتُ إليه وهو أخرس صامتٌ
وموطن أوّاه تبتل تائب	وقال ألا كم كنت ملجأ قاتلٍ
وقال بظلي من مطي وراكب	وكم مرّ بي من مدلج ومن مؤوّب
وزاحم من خضر البحار جوانب	ولاظم من نكح الرياح معاطفي

يصف الشاعر ابن خفاجة الجبل وضخامته ونتوءه، وقمته الشامخة الضاربة في الفضاء كأنما يطاول بكاھله أعنان السماء، يربض مكانه شامخا لا يتزحزح، تنبسط أمامه فيافي الصحراء يتأمل أسرارها، ويفيض ليلاليه يتدبر عواقب الأمور وصور السحب التي تلتف حول قمته، وقد أخذ البرق يلعب في جوانبه كأنما هي عمائم سود ذات ذوائب حمر تزيد منظره رهبة ووقارا.

النص مفعم بالخيال، يعتمد على صور تتكامل وتتسق مكملة بعضها البعض لتبرز لنا شموخ الجبل وامتداده ووقاره بين عناصر الطبيعة، تراه يكثر من الاستعارات:

¹-ابن خفاجة: الديوان، شرح عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، دت، ص47.

(يطاول أعنان السماء بغارب) (يزحم ليلا شهيه) (طوال الليالي مفكر بالعواقب) ويوظف الكناية (يسد مهب الريح) كل هذه الصور تصور الجبل كاهلا ضخما يغالب أعنان السماء وينافسها في علوها وسموها يحاكي بذلك منزلة الشاعر ومكانته، كما يجسده عاقلا يفكر في عواقب وأحداث الدهر.

ومن عذوية النص أيضا نلمس ذلك الحوار اللطيف الذي يدور بين الشاعر والجبل الأخرس الصامت فجعله يتحدث ويجيش ويتحسر على من ذهب من الأصحاب، ويحدثه عن العجائب المذهلة والتجارب القيمة، وتختتم القصيدة بأبيات تتضمن الحكمة والاعتبار.

رثاء المدن والممالك الزائلة.

تمهيد:

هذا الموضوع وإن كان منشقاً متفرعاً من موضوع الرثاء التقليدي إلا أنه في الأندلس اتخذ منحى آخر من التطور والتجدد؛ إذ أخذ شعراء الأندلس لأسباب خاصة بهم يتوسعون فيه، ويطورون مفهومه، حين رثوا مدنهم، وأكثروا القول في رثائها حتى صار رثاؤهم لها فناً قائماً بذاته في أدبهم.

كانت نشأة هذا النمط من الرثاء بالأندلس نابعة من واقع ظروف الحياة في الأندلس، إذ كانت المدن الأندلسية منذ العقد الأول من القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع تتعرض إلى ما تعرضت له من فتن سياسية وقلقل اجتماعية، وحروب طاحنة مدمرة أتت على الأخضر واليابس، فتفاعل الشاعر الأندلسي مع أزمت بلاده، فأبدع في هذا اللون قصائد باكية تصوّر ما وقع عليها من مأس مؤلمة، ومن هنا كان موضوع رثاء المدن والممالك الزائلة وليد ظروف الأندلس الخاصة.

غير أن هذا اللون من الشعر ليس جديداً على الأدب العربي، ولم تنفرد به الأندلس عن غيرها من أقطار الشرق الإسلامي؛ ذلك لأن الظروف التي وُلد فيها في الأندلس تتشابه إلى حدٍّ ما مع ظروف مشرقية أدت قبل عصر هذا النمط في الأندلس وامتزامة معه إلى ظهوره في المشرق أيضاً.

وقد ذهب طائفة من الدارسين المحدثين إلى القول بوجود أصل مشرقى لهذا النمط من الشعر، وذكر عدد من منهم الأشعار التي نُظمت في هذا النمط من الرثاء⁽¹⁾. فليس هناك مجال للقول باختصاص الأندلس بهذا النمط من الرثاء، وإنما الذي يمكن قوله هو أنه في الشعر الأندلسي برز على ما كان مثله من شعر يرثي المدن في المشرق؛ لأنّ

¹ - عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، لبنان، 1976، ص 319.

شعر رثاء المدن والممالك الزائلة في الأندلس يعبر عن مأساة مؤلمة ويصور كارثة نهاية أمة بأكملها.

إذ صور هذا اللون من الشعر الكارثة العظيمة التي تمثلت في ذهاب بعض مدن الأندلس إلى أيدي الأعداء، وكان ذهاب الأندلس شاملا، إذ تحولت لغتها وثقافتها، وذهبت أرضها، وتغير دينها، وقامت فيها حضارة على أنقاض حضارة، في حين كان رثاء المدن في المشرق يرثي مدنا سقطت في هزائم جزئية، أو غلبة مؤقتة، أو سقطت في فتن داخلية لم تسبب هزائم داخلية للإسلام والمسلمين.

1- ظاهرة رثاء المدن:

يعد فن الرثاء من الفنون الشعرية التقليدية التي احتذى فيها الأندلسيون المشاركة، ولكن شعراء الأندلس لم يقفوا بهذا الفن عند حد رثاء موتاهم من الملوك والرؤساء والأقارب والأحباب، وإنما نراهم يتوسعون فيه، ويطورون مفهومه، وذلك برثاء مدنها تلك التي غلبهم عليها أعداؤهم النصارى وأخرجوهم منها مشردين في أنحاء الأندلس. وقد قال شعراء الأندلس وأكثروا القول في رثاء مدنها حتى صار رثاء المدن والممالك بسبب ذلك فنا شعريا قائما بذاته في أدبهم.

قد وجد في أدب المشاركة شيئا من هذا القبيل كقصيدة ابن الرومي التي رثى بها مدينة البصرة⁽¹⁾ وغيرها، لكن المشاركة لم يتوسعوا في رثاء المدن والممالك توسع

¹ - قصيدة ابن الرومي (ت284هـ) التي قالها في رثاء البصرة بعد نكبتها، وهي من أهم القصائد المشرقية التي قيلت في رثاء المدن والممالك الزائلة يقول في مطلعها:

ذادَ عن مُقْلتي لذيذَ المنام شغلها عنه بالدموع السجام (ديوان ابن الرومي، ص 131).

وقصيدة الشاعر الفاطمي المعروف عمارة اليمني (ت569هـ) التي رثى فيها الدولة الفاطمية بعد سقوطها سنة (567هـ) ومطلع القصيدة :

رَمَيْتَ يا دَهرَ كَفَّ المَجْدُ بالشَّلَلِ وجيَّدهُ بعد حُسْنِ الحَلِي بالعَطَلِ

ديوان الشاعر عمارة بن أبي الحسن علي بن محمد بن زيدان القحطاني اليمني، ج 2، ص 841 .

الأندلسيين ولذلك لم يظهر هذا اللون من الشعر في أدبهم، كما ظهر في الأدب الأندلسي فنا قائما بذاته. وقد طبع على هذا اللون من الرثاء الأسى العميق، والتماس العظة والعبرة والتأسي في قيام الدول ثم زوالها منذ القدم، وإرجاع نكبتهم إلى فعل الدهر حيناً وإلى أنفسهم حيناً آخر، وتصوير ما أصاب الإسلام والمسلمين في الأندلس من ذل وهوان، وتعلقهم بديارهم المألوفة التي أبعادوا عنها، والتفجع على الأهل والخلان.

عندما تقلص ملكهم واستولى أعداؤهم على مدنها وحصونهم، رثى الشعراء تلك المدن والحوضر التي باتت في أيدي الأعداء، فقد جاءت مجموعة من القصائد صدى لنكبات متتالية لحقت بالبلاد، وكان لسقوط طليطلة عام 478هـ نكبة كبيرة اهتز لها العالم الإسلامي، وكان نذيراً بتساقط مدنا أخرى.

2-بواعث شعر ثاء المدن:

جاء سقوط المدن الأندلسية نتيجة للتفكك والانقسام الذي عرفته بلاد الأندلس، وكذلك الصراعات والخلافات الشخصية بين أمراء المسلمين، الشيء الذي أشعل جذوة الحرق والبكاء لزوال هذه المدن التي أصبحت خارج سلطان المسلمين بعد ما كان حواضر عامرة.

وقد صور الشعراء هذه النكبات المتكررة في بلاد الأندلس بإثارة عواطف الناس لنصرة واستغاثة بلادهم فاستهدفوا بذلك عواطفهم الدينية والقومية من خلال تصوير ما ألم بالأندلس من تهديد وبؤس وضياح، التفتت أشعارهم بمعاني الاستتجاد والاستصراخ والنجدة التي يتطلبها المقام والتعجيل بالعون. وحفلت أبياتهم بكلمات جيزة تتضمن النصرة، وألفاظ مؤثرة في حماس المنجدين، وغالبا ما يكون هذا النوع من الشعر موجها

للملوك والأمراء وممن ينتظر منهم الاستتصار والنجدة والحمية، فيمتزج المدح بالاستصراخ ومن نماذج ذلك ما جاء في سينية ابن الأَبَّار⁽¹⁾ يقول فيها⁽²⁾:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمسَتْ	فلم يزل من كعزَّ النصر ملتَمِسا
وحاشا مما تعانيه حشاشتها	فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
تقاسم الروم ما نالت مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسيةٍ منها وقرطُـبـةٍ	ما ينسف النَّفس أو ماينزف النَّفسا
مدائن حلَّها الإِشراك مبتسما	جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادي العابثات بها	يستوحش الطرف منها ضِيعف ما أنسا
فمن دساكر كانتدونها حرسا	ومن كنائس كان تقبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعا	وللنداء غدا أثناءها جرسا
فأين عيش جنيناها بهاخضرا	وأين غصن جنيناها بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها	ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

¹-الشاعر ابن الأَبَّار: هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأَبَّار من قبيلة قضاة اليمنية التي سكنت أُنْدَة (onda) إحدى ضواحي بلنسية وبها ولد سنة 595هـ عاش ثلاث وستين عاما في بيت علم ودين ومركز اجتماعي مرموق في بلنسية، إذ كان والده من علماء ووجهاء بلنسية، ومن معين ذلك نهل الشاعر ومن مشايخ أصحاب والده. عاش طفولته في بيئة الاندلس ذات الطبيعة الخلابة والمعروفة بالاستقرار والهدوء خاصة بعد موقعة الأَرَك التي دارت بين الموحدين والأذقوش الثامن سنة 591هـ. لازم أباه في طلب العلم والرواية، كما لازم شيخه الأكبر أبا الربيع سليمان الكلاعي أزيد من عشرين عاما فازداد علما وثقافة، ثم تزيد في ذلك بسبب رحلاته المتعددة داخل الاندلس وخارجها، لما سقطت بلنسية في أيدي الاعداء قصد ملك الحفصيين بتونس، وكانت بجاية أول محطة له في رحلته، فدرس بها وأقرأ، وروى وسمع وصنف، وألف، وكان ينقلب بين تونس وبجاية الى انتهى به الأمر مقتولا بتونس سنة 658هـ تاركا خلفه انتاجا علميا ضخما، ألف في الحديث، والمعاجم، والفقه، والتراجم والتاريخ، والادب واللغة، من مؤلفاته الثرة لم يسلم من التلف الا القليل منها: كتاب إعتاب الكتاب، والمقتضب من كتاب تحفة القادم، التكملة لكتاب الصلة، الحلة السيرة في أشعار الامراء، وله ديوان شعري.

²-ابن الأَبَّار: الديوان، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1956، ص395.

إن الموقف الذي يبعث فيه الشاعر آهاته صعب والخطب جلل لا يقبل التأخير، فضياع الأندلس قد أوشك والنصرة أصبحت واجبة، لذاك استهل الشاعر أبياته بأسلوب الطلب، لأن المدينة قد استبيحت عن بكرة أبيها، واستحالت من منارة الإسلام إلى مرتع الكفر والإذلال، أصبحت مساجدها بيعا، واستخلفت أكراسها الأذان، وتحولت المدينة من بهجة وأنس إلى خراب، تفيض القصيدة بمعاني الخوف والجزع لما انطوت عليه من حقائق مؤلمة وصور حزينة عن بلاد الأندلس.

ونظم الشعراء كذلك بعد سقوط مدنها تحت سلطة الأعداء، تضمن شعر هذا الاتجاه طابع الهدوء والاتعاض والاستسلام والتبسيط في نقل الأحداث، وتصوير المأساة التي يمر بها الأندلسي، وإبراز الفجائع وتجسيد مصير الأندلس في هذه الظروف الحالكة بأسلوب حزين لا يخلو من الحكمة والتأمل والاعتبار.

3- نماذج من شعر رثاء المدن:

شهد الشعراء سقوط الكثير من المدن الأندلسية أمام أعينهم، فقد سقطت برشتر سنة 456هـ، وسقطت طليطلة سنة 478هـ وسقطت بلنسية سنة 487هـ رثا الشعراء مدنها وصوروا ذلك الأسى العميق الذي تركه هذا السقوط في نفوسهم، يقول الشاعر ابن العسال⁽¹⁾ مصورا ذلك المشهد العظيم مشهد سقوط مدينة برشتر وما تجرعه سكانها من آلام وخطوب⁽²⁾:

ولقد رمانا المشركون بأسهم
لم تخط لكن شأنها الإصماء

¹-الشاعر ابن العسال: عبد الله بن فرج بن اليحصبي: يعرف بابن العسال، ويكنى أبا محمد، طليطلي الأصل. سكن غرناطة واستوطنها، كان فذاً في وقته، غريب الجود، طرفاً في الخير والزهد والورع، له في كل جو متفكس، يضرب في كل علم بسهم، وله في الوعظ تواليف كبيرة، وأشعاره في الزهد مشهورة، وكان يحلق في الفقه، ويجلس للوعظ، توفي عام 487هـ.

²-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص 163.

هتكوا بخیلهم قصور حريمها لم يبق لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلم بها في كل يوم غارة شعواء
باتت قلوب المسلمين برعبهم فحماتنا في حربهم جبناء
الشاعر ابن العسال يعد من الشعراء الذي صوروا نكبات المدن الساقطة في أيدي العدو، وهو الشاعر الذي عاصر هذه المحن وعانى من ويلاتها حين أخرج من طليطلة كذلك مع جموع ساكنتها من المسلمين، فقط أرخ لتلك الأحداث بشعره، وطبعت أبياته بطابع النجدة والإنذار، وفي هذه المقطوعة يحث على ترك المدينة والرحيل قبل أن يبيدهم جيش الفونسو لأنهم لا عهد لهم⁽¹⁾:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سبط
ومن النماذج أيضا التي صورت هذه النكبات نلتقي بما جادت به قريحة الشاعر أبي البقاء الرندي في رثاء مدن الأندلس ويصور فواجعها ومهالكها في قصيدته النونية الشهيرة التي تحدث فيها بلسان كل الأندلسيين، فأبدع في تصوير حال مدنها ومشاعر أهلها وتحسرهم على مدنها الجميلة العامرة، ولعل نونية الرندي هي أروع وأشجى ما شاجت به قريحة شاعر أندلسي، لا في رثاء مدينة بعينها كالنماذج السابقة، بل في رثاء الأندلس كل الأندلس، وتصوير نكبته التي تعلو على كل فجائع الدهر، وتتحدى السلوان والنسيان.

فهو في مرثيته يتحدث بلسان كل الأندلسيين ويشعر بمشاعرهم، ويترجم عن ثورتهم الدفينة المكبوحة، فكل بيت فيها مشحون بالأسى مبلل بالدموع تفجعا على ما آل

¹-سلامة علي محمد: الأدب العربي في الأندلس تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، 1989، ص155.

إليه حال الإسلام والمسلمين بالأندلس. وفيما يلي مقتطفات من هذه المراثية الشاكية الباكية، وهي بذاتها تغني عن كل شرح وتعليق، قال أبو البقاء الرندي⁽¹⁾:

لـكـ شـيء إذا ما تـمّ نـقـصـان	فـلا يـغـرّ بـطـيـب العـيـش إنـسـان
هـي الأـمـور كـما شـاهـد تـهـادول	مـن سـرّه زـمـن سـرّـته أـزـمـان
وهـذه الدار لا تـبـقـى عـلى أـحـد	وـلا يـدوم عـلى حـال لـها شـان
وصار ما كان من ملك ومن ملك	كـما حـكى عـن خـيال الطـيـف و سـنـان
فـجـائـع الدـهـر أنـواع مـنـوعـة	وـللزـمـان مـسـرات وأحـزـان
وـللحـوادث سـلوان يـسـهـلـها	وـما لـما حـلّ بـالإسـلام سـلـوان
دـهـى الجـزيرة أـمر لا عـزاء لـه	هـوى لـه أـحـد وانهـدّ ثـهـلان
أصـابـها العـيـن فـي الإسـلام فـارتأت	حـتى خـلت مـنـه أقطـار و بـلدان
فـاسأل بـلـنـسـية: ما شـأن مـرسـية ؟	وأيـن شـاطـبة أـم أـيـنـجـيـان ؟
وأيـن قـرطـبة دار العـلـوم، فـكم	مـن عـالم قـد سـما فـيـها لـه شـان ؟
وأيـن حـمص و ما تـحـويه مـن نـزه	و نـهـرها العـذب فـياض و مـالـان
قـواعد كـن أركـان البـلاد فـما	عـسى البـقاء إذا لك تـبقـ أركـان

إن الطابع الغالب على هذا اللون من الرثاء هو الأسى العميق، والتماس العظة والتأسي في قيام الدول ثم زوالها منذ القدم، وإرجاع نكبتهم إلى فعل الدهر حيناً وإلى أنفسهم حيناً آخر، وتصوير ما أصاب الإسلام والمسلمين في الأندلس من ذل وهوان، وتعلقهم بديارهم الجميلة التي أجلوا عنها، والتفجع على الأهل والرفاق المشردين والمقابلة القاسية بين هزلهم في حقهم، وجدّ عدوهم في باطله، واستنهاز هم المسلمين في شتى الأقطار لمد يد المعونة إلى إخوانهم في الأندلس، والدعوة للذود عن الإسلام والحرمات، والتطلع إلى المنفذ الذي ينظرون تحت علمه في معركة المصير.

¹-المرجع نفسه، ص 167.

ومن الناحية الفنية تميزت مراثيهم لمدنهم بغلبة عنصر العاطفة عليها كما تميزت بالاعتماد أكثر على التشبيه والاستعارة في إبراز المعاني وتجسيمها، وبث الحركة والحياة فيها ثم باللجوء إلى أسلوب الاستفهام البياني، وخاصة ما يخرج منه عن معناه الحقيقي إلى التعجب والإنكار والتمني، ولا غرابة في ذلك، فكم من المعاني التي فجرتها الأندلس في نفوسهم كان يدعوا إلى العجب أو الإنكار أو التمني.

4-رثاء الممالك والدول:

في هذا النوع من الرثاء يبكي الشاعر الأندلسي دولا بعينها كسقوط دولة بني عباد باشبيلية، يصور فداحة الكارثة التي ألمت بها بألم وحرقة، ونقف في هذا المشهد مع الشاعر ابن اللبانة⁽¹⁾ الذي ألّف في رثاء بني عباد كتابين أحدهما بعنوان: السلوك في وعظ الملوك، تضمن رثاء هم والبكاء على ما أصابهم، والثاني وسم بـ الاعتماد في أخبار بني عباد، تضمن أخبارهم ومراثيه فيهم، مراثيه ما قاله في المعتمد بن عباد⁽²⁾:

تبكي السماء بدمع رائج غادي	على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هُدَّت قواعدها	وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
عريسة دخلتها النائبات على	أساود منهم فيها وآساد
إن يُخلعوا فبنو العباس قد خُلِعوا	وقد خلت قبل حمص أرض بغداد
يا ضيف أقفر بيت المكرمات فخذ	في ضمّ رحلك واجمع فضلة الزاد

¹-الشاعر ابن اللبانة: هو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي الداني من دانية على البحر الأبيض المتوسط، من المدن الأندلسية المعروفة بالعلماء والأدباء والكتاب والشعراء، واللبانة أمه التي كانت تتصف بالصدق تشتغل ببيع اللبن فغلب عليها هذا الاسم ونسب اليه أبنائها، اعتنت به وترى وتنقف وتأدب وتفتحت ملكته الشعرية مبكرا حتى أعجب أمراء الطوائف بشعره، واستقر عند المعتمد بن عباد الذي كان أكثرهم نوالا، وظل مصاحبا له حتى استنزله يوسف بن تاشفين من أمارته، بعد ذلك أخذ ينتقل في البلاد وزاره بسجنه في أغمات بالمغرب، ولما توفي رثاه رثاء حارا، ثم لجأ الى صاحب ميورقة ناصر الدولة مبشر بن سليمان وأهداه الاشعار والمدائح البديعة، ومازال يعيش في رعايته الى أن أخذه الأجل سنة 507هـ، ألف كتاب سقيط الدرر ولقيط الزهر، وهو فصول في أخبار الشعراء، وله ديوان شعري.

²-ابن اللبانة: الديوان، تحقيق محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر، عمان، الأردن، ط2، 2008، ص56.

ويا مؤمل واديهم ليسكنه
ويقول ابن عبدون⁽¹⁾ في رثاء بني عباد⁽²⁾:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
فلا يغرنك من دنياك نومتها
فما البكاء على الأشباح والصور
فما صناعة عينيها سوى السهر
ما للليالي أقال الله عثرتها
من الليالي وخانتها يد الغير
تسرّ بالشيء لكن كي تغتر به
كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر
هوت بدارا وفلت غرب قاتله
وكان عضبا على الأملاك ذا أثر

وقد قال شعراء الأندلس وأكثروا القول في رثاء مدنهم ودولتهم، حتى صار رثاء المدن والممالك بسبب ذلك فنا شعريا قائما بذاته في أدبهم.

¹-الشاعر ابن عبدون: أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري الياثري من يابرة غربي بطليوس، تربي وتأدب على أيدي أعلام كبار كالأعلم الشنتمري(476هـ) وعبد الملك بن سراج(486هـ) وأبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي(494هـ). كان عالما بالخبر والأثر ومعاني الحديث، استيقظت ملكته الشعرية مبكرا، فقال الشعر ومدح الأمراء، مدح المتوكل عمر بن المظفر أمير بطليوس، وعمل لهم كاتبا لشؤون الدولة، توفي سنة 529 هـ .

²-شوقي ضيف: تاريخ الادب العربي عصر الدول والإمارات الاندلس دار المعارف، القاهرة، 1989، ص345.

الحنين والغربة في الشعر الأندلسي.

تمهيد:

التفت بعض الدارسين إلى أبرز الموضوعات المستحدثة التي نجح شعراء الأندلس في إدخالها على غرض (الغربة والحنين) الذي توسّع فيه الأندلسيون توسّعاً ملحوظاً فاقوا فيه المشاركة وبخاصة في حقب الأندلس الأخيرة، ومردّ ذلك يعود لأسباب عدّة خُصّت بها الأندلس دون غيرها منها رحلات الأندلسيين عن وطنهم التي كانت دوافعها مختلفة، وظروف الأندلس الخاصة كونها ثغراً متاخماً للأوروبيين.

فضلاً عن بعد القطر الأندلسي عن المشرق الذي بقيت عيون الأندلسيين ترنو إليه، وكانت الرحلة إليه تقتضي غيبة طويلة عن الوطن، مما يُشعل في نفوس المهاجرين مشاعر الشوق والحنين، وكلّ ذلك مثّل أهم الدوافع التي أسهمت في دفع الشعراء الأندلسيين النظم في هذا الموضوع وتوسيع هذا النمط بشكلٍ فاقوا به المشاركة؛ إذ أنتجوا هذا الفيض الغزير والكم الهائل من الأشعار التي تناولت هذا اللون من الشعر⁽¹⁾.

امتاز شعر الأندلسيين عن إخوانهم المشاركة بكثرة أشعاره الشاكية، وقصائده المصوّرة للغربة والبعد عن الأوطان المشبعة بحنين وشوق مثلهف إلى قريبها والتمرّغ في أحضانها، وقد بدأ هذا التميّز بالظهور إبّان الحقب الخيرة في الأندلس حينما كانت الأوضاع السياسيّة تجبر قسمًا كبيرًا من الأندلسيين على الهجرة وترك البلاد⁽²⁾.

هذا وقد أثار هذا التميّز بعض الدارسين المحدثين فراحوا يبحثون عمّا ضمّ من إبداعات موضوعيّة، وما حمل من تجديدات، فمن الذين رصدوا بعض الإبداعات التي

¹-الحنين والغربة في الشعر الأندلسي عصر سيادة غرناطة، رسالة ماجستير، ص 20 .

²- السعيد محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والمُوحّدين بالأندلس، ص 220 .

برزت عند بعض الشعراء خاصة عند ابن سعيد المغربي (ت685هـ)⁽¹⁾ الذي بمزج موضوع الحنين بالطبيعة الأندلسية، فالغربة في شعره ليست بكاءً على الوطن الأندلسي بقدر ما هي بكاء على الطبيعة الأندلسية التي عشقها وامتزج معها⁽²⁾.

وقد رصد الباحثون في بعض الموضوعات الجزئية في موضوع (الغربة والحنين) في الشعر الأندلسي استعمال الشاعر الرُّصافي البُلنسي (ت572هـ)⁽³⁾ مضموناً تقليدياً بطريقة جديدة لها دلالات ومقاصد رمزية خاصة في إحدى قصائده، لعلّ من أجمل ما نظمه الرُّصافي في الحنين إلى بلده قصيدته الرائية التي يستذكر فيها ماضيه في (بلنسية) حيث مسقط رأسه، وحيث نشأ وترعرع وذاق نعيم العيش.

1-مصطلح الغربة:

بالرجوع إلى جذر كلمة غربة في المعاجم العربية وما اشتق من الجذر (غ.ر.ب) مثل غرب واغتراب نجد أن العرب استخدموها في لغتهم وفي شعرهم، وحملت معاني ترتبط بالمكان والانتقال منه، ذكر الزبيدي في تاج العروس: «التغرب، الذهاب، والغرب، النوى والبعد، والغرب والغربة: النزوح عن الوطن، والتغريب والنفي عن البلد»⁽⁴⁾ وفي لسان

¹-ابن سعيد المغربي: هو أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي المغربي نور الدين، مؤرخ أندلسي، ومن الشعراء العلماء بالأدب، ولد بقلعة يحصب، قرب غرناطة، ونشأ واشتهر بغرناطة، وقام برحلة طويلة زار بها مصر والعراق والشام، وتوفي بتونس، وقيل: بدمشق سنة (ت685 هـ)، من تأليفه: المغرب في حلى المغرب، والمرقصات والمطريات، والغصون الياقة في محاسن شعراء المائة السابعة. ينظر: المَغْرِب في حُلَى المَغْرِب، ج1، ص7. وفوات الوفيات والذيل عليها، ج3، ص103. والأعلام للزركلي، ج5، ص26.

²-فوزي عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص 164.

³-الرصافي البُلنسي: هو أبو عبد الله محمد بن غالب الرُّصافي الرِّقَاء البُلنسي الأندلسي، الوزير الكاتب، والشاعر المشهور، وهو واحد من أعلام الأدب في الأندلس، ولُقِّب بـ(ابن رومي الأندلس) ولد برُصافة بلنسية، وهاجر إلى مالقة وتوفي فيها سنة (572هـ). ينظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 286 - 292، والحلة السيِّراء، ج2، ص264، والإحاطة، ج2، ص 505-515.

⁴-مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مادة(غرب).

العرب لابن منظور: «غرب عنه يغرب غربا وأغربه نحاه والغربة والغرب: البعد والنوى، ويقال: أغربته وغربته إذا نحيته وأبعدته»⁽¹⁾. وفي الحديث النبوي الشريف أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتغريب الزاني إذا لم يحسن، والمقصود به النفي عن البلاد⁽²⁾. وفي الحديث أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم: لما سئل عن الغرباء قال: «الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي»⁽³⁾. وفي حديث آخر: «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء»⁽⁴⁾.

من خلال المعاجم العربية وما جاء في الأثر يمكن القول: إن المدلول اللغوي للغربة يقارب معاني الذهاب والتتحي، والبعد عن الأهل والوطن، والنفي عن البلد. والغربة في الاصطلاح مصطلح غير محدد يحتاج إلى تعريف جامع يختلف معناه تبعا لاختلاف استخدامه، وحسب المضامين التي يبحث فيها، وحسب ما يرتبط به من ظواهر⁽⁵⁾.

2- مصطلح الحنين:

بالرجوع إلى كلمة الحنين المشتقة من الفعل الثلاثي الصحيح حنن الذي طرأ عليه التضعيف لغير زيادة، فصار: حَنَّ حَنَّ حَنِينًا جاء في لسان العرب لابن منظور "حنن: الحَنَان، من أسماء الله تعالى، والحنان الرحيم بعباده، قال الله تعالى: «يا يحي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا» (سورة مريم: 12، 13) و«الحنين: الشديد البكاء والطرب، وقيل هو صوت الطرب أكان ذلك عن حزن أو فرح، والحنين الشوق وتوقان النفس. وحنَّت الإبل: نزعت إلى أوطانها أو أولادها والناقة تحن في إثر

¹ - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مادة (غرب).

² - ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين، القاهرة، مصر، ط1، 1292هـ، ج2، ص122.

³ - المصدر نفسه: ص122.

⁴ - المصدر نفسه: ص123.

⁵ - قيس النوي: الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا، مجلة عالم الفكر، مج10، 1979، ص13.

ولدها حنيناً: تطرب مع صوت، والأكثر أن الحنين بالصوت»⁽¹⁾. وفي معجم القاموس المحيط: «حنن: الحنين: الشوق، وشدة البكاء»⁽²⁾.

ونستخلص مما سبق أن الحنين من الناحية اللغوية هو: صوت وطرب وشوق وعطف. الحنين هو شوق وتوقان النفس مع الطرب والتتغيم، والغربة عاطفة تستولي على المرء وبخاصة الفنانين مما يجعلهم يعيشون في قلق وكآبة لشعورهم بالبعد عما يهون أو يرغبون، وقد تبرز هذه العاطفة، هو الاشتياق للأشخاص أو المكان أو الزمان، وبه تتجلى مشاعر الشوق والحزن، فالكثير يشعر بالحنين ولكن القليل من يظهره، فالحنين هو شعور يسيطر على الشخص ويجعله يتمنى عودة الأيام والماضي والذكريات الجميلة. فالحنين وجود فطري وعالق بذات الإنسان.

وشعر الحنين من الموضوعات التي توسع فيها الشعراء الأندلسيون فكانوا يرثون المدن والإمارات التي تسقط من الأندلس، ويبكون الأندلس وضياها، ويعبرون عن ألمهم وحزنهم، وبصورون الأحوال التي تتزامن مع سقوط هذه المدن والإمارات، والحال الذي آل إليه السكان، وكانت أول مدينة سقطت مدينة طليطلة، وقد عبر الشعراء عن صدمتهم بسقوطها بقصائد متعددة، ومن الشعراء من رثى الأندلس، ومن أشهر القصائد: قصيدة لأبي البقاء الرندي.

توسع شعراء الأندلس في هذا الفن الشعري، فكثير ممن رحلوا عن الأندلس كانوا من الشعراء، وعاشوا الاغتراب بكل أنواعه، وليس كالاغتراب شيء يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلقه به، وهذا ما حدث للأندلسيين عندما وجدوا أنفسهم خارج ديار الأندلس، ومنهم من اغترب بالانتقال إلى الشرق، ومنهم من انتقل من مدينته إلى مدينة

¹-ابن منظور : لسان العرب، مادة(حنن).

²-الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ، مادة(حنن).

أخرى بالأندلس، وكانوا كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب ونالت من نفوسهم فزعوا إلى الشعر يبثون توقعهم وحنينهم المشوب إلى أوطانهم وأحبابهم⁽¹⁾. وتعددت ألوان الشكوى فمنهم من شكا سوء الحال وظلم الحياة، ومنهم من شكا الغربة وآلامها مثلما نجد الشاعر صالح بن يزيد النفزي يشكو مغترباً⁽²⁾:

غريب كلما يلقى غريب فلا وطن لديه ولا حبيب
تذكر أصله فبكى اشتياقا وليس غريبا أن يبكي غريب
ويخاطب عبد الكريم اللخمي أهله في مدينة تونس قائلاً⁽³⁾:

حيّ حيّ بالله يا ريح نجد وتحمل عظيم شوقي ووجدي
بي شوق إليهم وليس يعزى بجميل ولا لسكان نجد
وهذا لسان ابن الخطيب يشكو الإبعاد، ويعبر عن حبه وشوقه لغرناطة فيقول⁽⁴⁾:

أيام قرب كعندي ما لها ثمن لكنني صدني عن قربك الزمن
حطت بعدك يا أهلي ويا وطني رحل الغريب فلا أهل ولا وطن

3-أنواع شعر الغربة والحنين:

1.3-غربة المكان:

هو ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان في بعده عن وطنه، وهذا النوع من الغربة ليس جديداً على الشعر العربي، فقد أخذ شعراء العصر الجاهلي يعبرون عن غربتهم وتركهم أوطانهم وتكبدتهم عناء السفر، معبرين في أثناء ذلك عن حنينهم وأشواقهم إلى ديارهم وربوعهم التي غادروها باختيار منهم. أما أولئك الذين خرجوا مع الفتوحات

¹-عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص276.

²-ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة، ج3، ص283.

³-المصدر نفسه، ج2، ص321.

⁴-ابن الخطيب لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح، الدار

البيضاء، المغرب، 1983، ص189.

الإسلامية تاركين أوطانهم إلى عوالم جديدة استقروا بها، فقد بقيت ذكرياتهم وعواطفهم مع عالمهم الأصلي الذي رحلوا عنه، ومازال الحنين والشوق يراودهم من آن لآخر، معبرين عن غربتهم في عالمهم الجديد، ورغبتهم الشديدة في العودة إلى مراتبهم وديارهم التي حالت الظروف دون عودتهم إليها. وهذا ابن دراج القسطلي⁽¹⁾ يبكي شبابه ويندب دياره فيقول⁽²⁾:

ويا لرياضِ اللّهُو جَفَّ سَفَاها	فيا للشّباب الغَضُّ أنْهَجَ بُزْدُهُ
فأعْشَى عُيُونَ الغانياتِ سَنّاها	وما هي إلا الشَّمْسُ حَلَّتْ بمفرقي
فَعَنَ أَيَّ عَيْنٍ بَعْدَ تِلْكَ أَرّاها	وعَيْنُ الصِّبّا عارَ المشيبُ سَواها
وآها لَوَصْلِ الغانياتِ وآها	سَلامٌ على شَرَحِ الشّبابِ مُرَدَّدٌ
وَمَحَّتْ مغانِياها وصَمَّ صَدّاها	ويا لديارِ اللّهُو أَقَوْتُ وسُومها

ومن أشعار ابن الخطيب في الحنين إلى الوطن قوله⁽³⁾:

غَمّامًا يُروِّي ساحتَيْها سِجّالُهُ	سَقَى اللهُ مِنْ غَرْطاةٍ مُتَبَوِّأً
أُمِيطَتْ عَلَى بَذْرِ السَّمَاءِ حِجّالُهُ	وَرَبْعًا بِحَمْرَاءِ المَدِينَةِ أَهْلاً
يُرْوَعُ الأَعادي بِأَسْهُ وَصِيّالُهُ	وَعَابًا بِهِ لِلْمُلْكِ أَشْبالُ ضِيغَمٍ
شِمْتُ بَرَقَ الشَّرْقِ شَبَّ دُبّالُهُ	لَقَدْ هاجَنِي شَوْقٌ إِلَيْها مُبَرِّحٌ إِذا

2.3- غربة الزمان:

¹-الشاعر ابن دراج القسطلي: هو محمّد بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج القسطلّي، وكنيته أبو عمر، عام 347هـ في مدينة قرطبة بالأندلس، حيث كان يعود لعائلة أصلها من بربر صنهاجة، التي كانت تسكن قرية قسطلة دراج، الذي تقع في الغرب من الأندلس. ويعرف بأنه من كبار الشعراء وعرف بأن له ديواناً شعر في جزأين، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان، وكان يجيد النثر، ولكن لا يوجد معلومات كافية يمكن التعريف به من خلالها فأغلب المراجع التي ذكرته ضاعت، إضافةً إلى أن ديوان شعره ضاع وضاعت رسائله البليغة.

²-ابن دراج القسطلي: الديوان، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكنب الاسلامي ، دمشق، سوريا، ط1، 1961، ص ص 10، 11.

³-ابن الخطيب لسان الدين: الديوان، تحقيق محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1989، ج2، ص494.

هي تلك الحالة النفسية التي تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية غير مواتية تجعله يشعر بالغربة بين أهله وذويه في مجتمع قد نشأ فيه. ويرجع ظهور هذا النوع من الغربة إلى ما كان يسود بعض الفترات التاريخية في الأندلس من فتن وصراعات سياسية وظلم، فبعض الحكام كانوا بمثابة سيف مسلط على رقاب العباد بما في ذلك الشعراء، فهم ييغون في الأرض بغير الحق، يضاف إلى ذلك أن بعض الطبقات الاجتماعية استغلت الأوضاع المتدهورة، وتسلفت حتى وصلت إلى مكانة ومنزلة اجتماعية لا تستحقها ووصلوا إلى مراتب ومناصب دون امتلاكهم مقومات تجعلهم جديرين بها؛ بل زاحموا الشعراء والمفكرين في مكانتهم الاجتماعية القديمة، وأزاحوهم عنها مما عمق لدى الشعراء الإحساس بالمأساة.

4-أسباب ذبوع شعر الحنين والغربة في الشعر الأندلسي:

كان لشعراء المشرق فضل السبق في شعر الحنين، واقتفى شعراء الأندلس أثرهم لكنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل توسعوا فيه، وفاقوا المشاركة في شعر الحنين شكلا وموضوعا، بل كانوا أكثر براعة وتجديدا منهم، ومن أهم الأسباب التي أدت إلى ذبوع شعر الحنين عند الشعراء الأندلسيين:

1.4-الرحلة: وهي الانتقال والحركة لغاية ما، وقد وجدت في الشعر المشرقي في العصر الجاهلي في وصف الرحلة وكذلك في العصر الإسلامي في وصف رحلة الجهاد، وفي العصر الأموي والعباسي في وصف رحلة الصيد، وما أن أطل العصر الأندلسي حتى كان للرحلة فيه مكانة عظيمة، وقد كانت الرحلة على نوعين اثنين هما:

1.1.4-الرحلة داخل المدن الأندلسية: وقد كانت لطلب العلم أو لتدهور الأوضاع الأمنية. كقول ابن سعيد وهو بمرسية شرق الأندلس مصورا معاناة فراقه لربوع اشبيلية؛

يعكس حضور هذا النوع في الشعر الأندلسي⁽¹⁾:

أقلقه وجده فباحا	وزاد تبريحه فباحا
ورام يثني الدموع لمّا	جرت فزادت له جماحا
يكابد الموت كلّ حين	لو أنّه مات لاستراحا
ينزو إذا ما الرياح هبّت	كأنّه يعشق الرياحا
يسألها عن ربوع حمص	لمّا نما عرفها وفاحا
كم قد بكى للحمام كيما	يعيره نحوها جناحا

2.1.4-الرحلة إلى بلاد المشرق: كانت الرحلة لطلب العلم هي الدافع القوي لخروج

الأندلسيين إلى المشرق، وكذلك كانت هناك رحلة قسرية بسبب الفتن وظلم الحكام والخلافات الداخلية، ومن ذلك قول أبو الحسن علي بن سعيد وهو في مصر⁽²⁾:

هذه مصر فأين المغرب	مذ نأى عني دموعي تسكبُ
أين حمص؟ أين أيامي بها؟	بعدها لم ألق شيئا يعجبُ
كم تقضي لي بها من لذة	حيث للنهر خريز مطربُ

2.4-الاعتقال والإبعاد: كانت السياسة سببا رئيسيا من أسباب السجن، بل هي الدافع

الأقوى الذي من خلاله زج بالكثير من الشعراء الأندلسيين في السجون والمعتقلات، ومن أولئك الشعراء المعتمد بن عباد الذي سجن بأغمار بالمغرب، وقد قال في ذلك⁽³⁾:

غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيّرُ	سيبكي عليه منبرٌ وسريّرُ
إذا قيل من أغمار قد مات جوده	فما يُرتجى للجودِ بعدُ نشورُ
فيا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً	أمامي وخلفي روضٌ وغديرُ

5-موضوعات ومعاني شعر الحنين والغربة:

¹-المقري: نفح الطيب، ج1، ص693.

²-المصدر السابق ج2، ص281.

³-رشا عبد الله الخطيب: تجربة السجن في الشعر الأندلسي، رسالة ماجستير، 1996، ص67.

انحصرت موضوعاته في تذكر الوطن والتشوق إلى معاهده وشكوى الغربة والابتعاد عن الأرض والأهل والخلان، والندم على الاغتراب، وتصوير الحسرات لفقدان البلد والبعد عنه، وبث التجارب الذاتية للشعراء في ديار الغربة، وتصوير ملاعب الصبا وتذكر أيامهم وعهودهم السعيدة في ديارهم، وظل الشاعر الأندلسي يتمزق قلقاً وإحساساً بالغربة، وظلت شكواه عنيفة، وبان حنينه كبيراً شامخاً لا تهزه هبات الريح العاتية.

6- خصائص شعر الحنين والغربة:

أ-سهولة الألفاظ.

ب-صدق العاطفة.

ج-التجربة الذاتية الشعرية مثل: الارتحال والعزلة والاعتقال والغربة.

د-المزج بين الحنين والطبيعة، فقد افتتحت قصائد الحنين بوصف الطبيعة التي يحن فيها الشاعر إلى وطنه.

7-بنية قصيدة الحنين:

اهتم النقاد العرب الأوائل ببناء القصيدة العربية، ولا شك أن القصيدة الأندلسية قد خضعت للبناء التقليدي المعروف الذي ساد في المشرق والمغرب، وميزوا في ذلك بين ثلاثة عناصر رئيسية في بنية القصيدة، وهي المطلع، وحسن التخلص، والخاتمة، ولكل عنصر من هذه العناصر خصوصيته، انطلاقاً من اجتهاد الجرجاني عندما اشترط على الشاعر الحاذق «أن يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدها الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم بالإصغاء»⁽¹⁾. وقد تكلم النقاد في

¹-الجرجاني القاضي: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص48.

هذا الشأن عن المطالع الحسنة الموفقة في الشعر، وحسن التخلص والخروج إلى الموضوع، ثم الخاتمة وهو الحديث عن الوحدة الموضوعية.

لقد اعتنى شعراء الأندلس بمطالع قصائدهم واختيار ألفاظه من السهل وتنويع الصيغ بين الخبر والإنشاء، ومن أمثلة ذلك مطلع قصيدة لابن زمرك يقول فيه⁽¹⁾:

يا من يحن إلى نجد وناديها غرناطة قد ثوت نجد بواديها

ومن المطالع الحسنة أيضا نقرأ مطلع قصيدة الشاعر الأندلسي ابن جزي يقول فيه⁽²⁾:

ذهبت حُشاشةً قلبيا لمصدوع	بين السلام ووقفه التوديع
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها	عقيلة والكثيب الفرد جاليها
تقلدت بوشاح النهر وابتسمت	أزهارها هي حلي في تراقيها
وأعين النرجس المطلول يانعة	ترقرق الطل دمعا في مآقيها
وافتر ثغر أقاح من أزهارها	مقبلا خد ورد من نواحيها
كأنما الزهر في حافاتها سحرا	دراهم والنسيم اللدن يجبيها

أحسن الشعراء مطالعهم واهتموا بالتخلص من المقدمة إلى الموضوع وهو الغرض الرئيسي حيث اعتبر النقاد أن الانتقال إلى الموضوع يعد النقلة المعنوية الأبرز بين تلك الموضوعات. ويضرب الدارسون قصيدة علي بن سعيد التي نظمها يتشوق فيها إلى وطنه مثالا عن حسن المطالع والتخلص الأنيق والانتهاء إلى الخاتمة، وهي القصيدة التي يقول مطلعها⁽³⁾:

هذه مصر فأين المغرب	مذ نأى عني دموعي تسكبُ
أين حمص؟ أين أيامي بها؟	بعدها لم ألق شيئا يعجبُ
كم تقضي لي بها من لذة	حيث للنهر خريز مطربُ

¹- ابن الخطيب لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص307.

²- المصدر نفسه، ج2، ص307.

³- المقري شهاب الدين أحمد: نفح الطيب، ج2، ص281.

يشي هذا المطلع بشوق الشاعر إلى ربوع وطنه في المغرب الإسلامي بعد ما أصبح بعيدا عنه ثم يحسن التخلص من المطلع والمقدمة منتقلا إلى وصف ما يحن إليه من مدن الأندلس: مألقة ومرسية والجزيرة الخضراء وغيرها. يقول⁽¹⁾:

أين حسن النيل من نهر بها كل نغمات لديه تطرب
بل على الخضراء لا أثقل من زفرة في كل حيت تلهب
ثم ينتقل إلى وصف الذكريات مستقيضا بالتنقل من مدينة إلى أخرى إلى أن يصل إلى الختام الذي يقول فيه⁽²⁾:

سوف أنثني راجعا لا غرني بعد ما جرّيت برق خُلب
إن شعر الحنين في الأندلس وبخاصة في عصر غرناطة الذي شاع فيه كثيرا وانتشر، كان في معظمه عبارة عن مقطعات شعرية تميزت بوحدة موضوعها وهو الحنين إلى الوطن والأهل، والشوق إلى الديار ومعاهد الصبا، فلا نكاد نرى قصائد مطولة في هذا النوع الشعري في الأندلس، وقد يأتي شعر الحنين أحيانا مقدمة للقصيدة ثم ينتقل الشاعر فيها إلى غرض آخر كالمدح أو غيره من الموضوعات الشعرية.

¹-المصدر نفسه، ج2، ص283.

²-المصدر نفسه، ج2، ص281.

شعر الاستصراخ والاستغاثة.

تمهيد:

بعد أقول نجم الخلافة الأموية بالأندلس أواخر القرن الرابع الهجري وقيام دويلات ملوك الطوائف، ثم سقوطها على يد يوسف بن تاشفين المرابطي في المغرب، كل هذه الأزمان كانت تؤرخ لعصور تلمع بالانتصارات، لكن بعد الأحداث التي صحبت سقوط أولى المدن الأندلسية بيد النصارى عام 478هـ هذا السقوط الذي لم يهضمه المسلمون أصبح يشكل خطراً وجودياً على العديد من المدن الأخرى مما جعل ملوك الطوائف يستشعرون الخطر المحدق بأرض الأندلس وبدأوا يلتمسون العون من جيرانهم المرابطين إخوة الدين والعقيدة.

استجاب المرابطون لنصرة إخوانهم الأندلسيين وعبروا الأندلس ودافعوا عن حياضه في موقعة تسمى الزلاقة عام 479هـ التي عدت من أيام الأندلس المشهورة، وبذلك تم دحر النصارى، لكن المرابطين أخذوا يطمعون بالسيطرة على الأندلس خاصة لما أحسوا بضعف ملوك الطوائف وانغماسهم في حياة اللهو والبذخ.

بعد موت يوسف بن تاشفين خلفه ابنه علي بن يوسف الذي ساعد تسييره لشؤون الدولة على انتشار الفرقة مع حلفائه مما عجل بانهيار الدولة ثم سقوطها عام 548هـ وآل الأمر بعدهم إلى الموحدين الذي أحرزوا نصراً مؤزراً في معركة الأرك عام 593هـ وعززوا نفوذهم بالأندلس بعدها بسنوات لم يلبثوا حتى هزموا في موقعة العقاب عام 609هـ. هذه الهزيمة كانت بداية العد التنازلي للمسلمين بالأندلس، يقول أبو إسحاق الاشبيلي⁽¹⁾:

وقائلة أراك تطيلُ فكراً	كأنك قد وقفتَ لدى الحسابِ
فقلتُ لها: أفكّرُ في عقابِ	غدا سببا لمعركة العقابِ
فما في أرضِ أندلسٍ مقامٌ	وقد دخلَ البلا من كُلِّ بابِ

¹-المقري: نفح الطيب، ج6، ص325.

شعر الاستصراخ والاستغاثة هو أحد فنون الشعر التي استحدثتها شعراء الأندلس بالإضافة إلى الموشحات والزجل، وهو شعر يقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب العربي في المحل الأول، وهمم المسلمين في شتى أقطارهم كي يهبوا بباعث الأخوة الإسلامية لنجدة إخوانهم بالأندلس ومد يد العون في جهادهم ضد أعدائهم من نصارى الأندلس الذين أطمعهم ضعف ملوك المسلمين بها ، فراحوا يضاعفون من غاراتهم على مدنها و يهددون أهلها بالاكنتساح الشامل.

ومنذ القرن السادس فصاعدا، وبسبب تخاذل ملوك الأندلس، وتفرق كلمتهم وإسرافهم على أنفسهم في اللهو والمجون، وانشغالهم عن أمور الجهاد بمحاربة بعضهم بعضا أخذ العدو ينجر عليهم، ويباغتهم بالإغارة من وقت لآخر والاستيلاء على أطراف بلادهم شيئا فشيئا، وكلما مرّ الزمن ازداد المسلمون ضعفا وازداد الأعداء تبعا لذلك قوة وجرأة عليهم. وقد كثر شعر الاستغاثة هذا في الأدب الأندلسي، حتى صار بكثرتة وتنوع صوره فنا جديدا في الشعر الأندلسي بل في الشعر العربي كله، لأنه نابع من صميم مأساة الأندلس التي لم يكن لها نظير من قبل في تاريخ الإسلام.

1-شعر الاستغاثة والاستصراخ:

هو شعر يقوم على استنهاض عزائم وهمم المسلمين في شتى أقطارهم، كي يهبوا بباعث الأخوة الإسلامية لنجدة إخوانهم بالأندلس، ومدّ يد العون لهم في جهادهم ضد أعدائهم من نصارى الأندلس الذين أطمعهم ضعف ملوك المسلمين بها، فراحوا يضاعفون من إغاراتهم على مدنها ويهددون أهلها بالاكنتساح الشامل .

ومنذ القرن السادس فصاعدا، وبسبب تخاذل ملوك الأندلس، وتفرق كلمتهم وإسرافهم على أنفسهم في اللهو والمجون، وانشغالهم عن أمور الجهاد بمحاربة بعضهم بعضا، أخذ العدو يتجراً عليهم، ويباغتهم بالإغارة من وقت لآخر والاستيلاء على أطراف

بلادهم شيئاً فشيئاً، وكلما مر الزمن ازداد المسلمون ضعفاً، وازداد الأعداء تبعاً لذلك قوة وجرأة عليهم.

شاهد شعراء الأندلس كبقية مسلميها تساقط قواعدهم ومدائهم تبعاً في يد النصارى، كما يشاهدوا محو معالمها الإسلامية، وطرد أهلها منها، والافتتان في صور تعذيبهم، فيستولي عليهم الأسى والذهول، ولا يملكون إلا أن يجأروا بشعر الاستغاثة يخاطبون به قلوب ملوك المسلمين عامة، وملوك المغرب خاصة من مرابطين وموحدين، فيستجاب لصريخهم حيناً، وتضم الآذان عنه أحياناً، إما لانشغال هؤلاء الملوك بأحداث وهموم بلادهم، وإما ليأسهم من أهل الأندلس أنفسهم لما عانوه معهم من قبل وما عرفوه عنهم من تأمر بعضهم مع أعداء البلاد عليهم وعلى إخوانهم بالأندلس في مناسبات سابقة.

2.1- من نماذج شعر الاستغاثة والاستصراخ:

شعر الاستغاثة نابع من وحي قلوب تنزف ألماً وحسرة وبأساً، وقيمتها ليست في أساليبه، بمقدار ما هي عاطفته المشبوبة، ومشاعره الصادقة، وصوره الشاجبة الباكية وصرخاته التي تستجدي العون من ملوك المسلمين، حتى إذا لم تجد منهم سميعاً أو معيناً، راحت تلتتمسه من الله.

بعد دخول النصارى قرطبة عام 633هـ واحتلال بلنسية وغيرها صور ابن سهل الأندلسي⁽¹⁾ معالم الوحشية التي ارتكبتها النصارى في إشبيلية من قتل وتكيل بقوله⁽¹⁾:

¹- ابن سهل الأندلسي الشاعر: أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي (605هـ-649هـ) شاعر وكاتب من أسرة ذات أصول يهودية، وُلد في إشبيلية، وتردد على مجالس العلم والأدب فيها. انصرف إلى حياة اللهو والمتعة، وبرز في شعر الغزل والخمر والموشحات، حتى عُرف بلقب شاعر إشبيلية وشاحها. دفعته سوء الأحوال السياسية إلى مغادرة إشبيلية في أوائل العقد الخامس من القرن السابع الهجري إلى جزيرة ميورقة، حيث أقام قرابة عام، وهناك قال أولى قصائده المدحية في أبي عدنان بن حكم، صاحب ميورقة. ثم انتقل إلى سبتة، مع وجود اختلاف في روايات التراجم، بين من يرى أنه عاد أولاً إلى إشبيلية، ومن ينفي زيارته لميورقة من الأصل. والراجح أنه زار إشبيلية قبل توجهه إلى سبتة، بدلالة قصيدة مدح فيها الشيخ أبا فارس الفتح بن فارس بن أبي حفص، والي إشبيلية سنة 643 هـ.

الكفر ممتدالمطامع والهدى
 متمسك بذئاب عيش أغبر
 كم نكروا من معلم كم دمروا؟
 من معشر كم غيروا من معشر
 كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا
 من حلية التوحيد صهوة منبر
 وبعد ما تفاقت أهوال الحصار كتب الشاعر قصيدته المؤثرة يستصرخ فيها أهل العروبة
 على نصره أخوانهم يقول فيها⁽²⁾:

نادى الجهاد بكم بنصر مضر يبدو لكم بين القنا والضمير
 يا معشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابرا عنأكبر
 أنتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد في قديم الأعصر
 استخدم الشاعر أسلوب النداء مع الاستعطاف، وجعل من الأندلس غريقا يطلب
 المساندة والنصرة واستغل عاطفة الأخوة والترابط بين أواصر الشعوب الإسلامية. كان ابن
 الأبار القضاعي(ت658هـ) شاعرا مجيدا، وحين حدثت معركة أنيشة أظلمت الدنيا في
 عينيه لمن استشهدوا فيها من الشيوخ الأجلة، وخاصة شيخه أبا الربيع الكلاعي، وكان قد
 بلغ السبعين من عمره، وحين سمع النفير بادر لقتال الأعداء، ولم يزل متقدما أمام
 الصفوف زاحفا إلى الأعداء مرغبا في قتالهم مناديا: أعن الجنة تقرون؟ وظل كذلك حتى
 استشهد مع من استشهدوا من شيوخ بلنسية وشجعانه يقول ابن الأبار في هذه الموقعة⁽³⁾:

ألمّا بأشلاء العلا والمكارم نُقِدَ بأطراف القنا والصّوارم
 مَضَوْا في سبيل الله قُدَمَا كأنما يطبّرون من أقدامهم بقوادم
 مواقف أبرارٍ قضوا من جهادهم حقوقا عليهم كالفروض اللوازم
 أبيتُ لها تحت الظلام كأنني رَمِيْ نصالٍ أو لديغُ أراقم
 فوا أسفي للدين أعضلَ داؤه وأيأس من آسٍ لمسراه حاسم

¹- ابن سهل الأندلسي: الديوان، تحقيق يسرى عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2003، ص35.

²- المصدر السابق، ص35.

³- شوقي ضيف: تاريخ الادب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص387.

يهيب ابن الأَبَّار في هذه القصيدة بكل مسلم أن يلم بالأشلاء التي مزقتها رماح
النصارى وسيوفهم، ويقول إنهم مضوا إلى الجهاد مسرعين في سبيل الله كأنهم طير وتحز
في نفسه الواقعة وشهادؤها، ويتحسر للداء العضال الذي نزل بالمسلمين ودينهم في
الأندلس، يقوم هذا اللون الشعري على استنهاض عزائم ملوك المغرب والمسلمين لنجدة
إخوانهم في الأندلس أو التصدي للاجتياح الإسباني. وقد أورد المقرئ في نفح الطيب
قصيدة لابن الأَبَّار يستغيث فيها سلطان تونس أبي زكريا الحفصي سنة 636هـ جاء في
مطلعها مطلعها⁽¹⁾:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدُلُسًا	إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِتِهَا دَرَسَا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ	فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
وَحَاشَ مِمَّا تُعَانِيهِ حُشَاشَتَهَا	فَطَالَمَا دَاقَتِ الْبَلَوَى صَبَاحَ مَسَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزْرًا	لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسَا
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ إِلْمَامٌ بَائِقَةٍ	يَعُودُ مَا تَمُّهَا عِنْدَ الْعِدَى عُرْسَا
وَكُلُّ غَارِبَةٍ إِجْحَافٌ نَائِبَةٍ	تَنْثِي الْأَمَانَ حِذَارًا وَالسُّرُورَ أَسَى
تَقَاسَمَ الرُّومُ لَا نَأَلَتْ مَقَاسِمُهُمْ	إِلَّا عَقَائِلُهَا الْمَحْجُوبَةَ الْأُنْسَا
وَفِي بَلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقُرْطُبَةٍ	مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا

ومن شعراء الأندلس من كان بعيد النظر ففتبأ بالمأساة الكبرى قبل وقوعها فراح
ينعى في شعره على ملوك الأندلس تخاذلهم أمام أعداء البلاد، وجورهم في الرعية
وتهاونهم في أمور الدين وإسافهم في حياة الترف والمجون.

وقد اهتز الملك ارتياحا لهذه القصيدة، ولشغفه بها وحسن موقعها منه، أمر شعراء
حضرته بمجاوبتها، فجاوبها غير واحد، ثم بادر السلطان بإعانة أهل بلنسية بأساطيله

¹-المرجع السابق، ص 388.

التي لم تكد تصل للنجدة حتى كان الطاغية ملك برشلونة قد تغلب على بلنسية وأخذها صلحا سنة 637هـ. ويصرخ الشاعر ابن الأبار مستنقرا أيضا في نونيته الشهيرة⁽¹⁾:

يا راكبين عتاقَ الخيل ضامرةً	كأنها في مجال السبقِ عقبانُ
وحاملين سيوفَ الهندِ مرهفةً	كأنها في ظلامِ النقعِ نيرانُ
وراتعين وراءَ البحرِ في دعةٍ	لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ
أعندكم نبأً من أهل أندلسٍ	فقد سرى بحديثِ القومِ ركبَانُ
ماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكم	وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ

يصيح الشاعر ابن الأبار في فرسان المسلمين من حملة السيوف ويستنفروهم للمسارعة في نجدة الأندلس، ويعجب ان يرى المسلمين راتعين في ديارهم يعيشون في دعة وعزة وقوة ، وكأنهم لم يسمعوا بما جرى للأندلسيين ، وما أصابهم من محن ومأس، ويصرخ ويتألم للتقاطع والتناذب بين الأمة الواحدة في الدين والرحم.

وفي شعر لسان الدين بن الخطيب أكثر من قصيدة تصل ما بين الأندلس والمغرب، وتستنهض الهمم لنجدة الأندلس، وتبقى بها راية العروبة والإسلام، ومما جاء في شعره⁽²⁾:

أخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا	فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفأ
وإذ بلغ الماء الزبى فتتداركوا	فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا
تحكم في سكان أندلس العدا	فلهما على الإسلام ما بينهم لهفا
أنوما وإغفاء على سنة الكرى	وما نام طرف في حماها ولا أغفى
أحاط بنا الأعداء من كل جانب	فلا وزر عنهم وجدنا ولا كهفا

هو نداء إغاثة الأخ لأخيه وطلب نصرة من جار لجاره، لان أحوال الأندلس صعبة والعدو محيط بها بهمجيته وشراسته، وبأسلوب الاستعطاف يحاول الشاعر أن يحمس

¹-المرجع السابق، ص390.

²-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص169.

مخاطبيه بكل أنواع الحماسة، ويذكرهم بموجبات الجهاد الدفع وطلب الجنة ورضوان الله بقوله⁽¹⁾:

وهل بائعٌ فينا من الله نفسه
وكيف يعيثُ الكفر فينا ودوننا
فلا مشترٍ أولى من الله أو أوفى
قبائلُ منكم تعجزُ الحصر والوصفا؟
3-مضامين شعر الاستجداد:

أ-الحماسة

ب-ثنائية اليأس والأمل:

ج-الميل إلى الحكمة:

يميل الكثير من الشعراء إلى شيء من الحكمة في قصائدهم، وهي حكم تذكر بحتمية التاريخ، والاحتجاج بالأمم السابقة، وضرب الأمثال الملائمة لموضوعاتهم، ويكثرُونَ أيضاً بالتسليم بالأقدار ، وسنن الله في خلقه، يقول ابن عبدون⁽²⁾:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
نلمس الكثير من الحكم أيضاً في مطلع نونية الرندي⁽³⁾:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
هي الأمور شاهدها دول
فلا يغرّ بطيب العيش إنسان
وهذه الدار لا تبقي على أحد
من سره زمن ساءته أزمان
ولا يدوم على حال لها شان

د-الدعاء:

ومما يشيع في هذا النوع من الادب هو ضراعة الشعراء عند المحن إلى الله تعالى ولجوؤهم إلى توظيف المقدسات، والتحلي بالصبر والجلد ويطلبون من الله تعالى ان يكون عوناً لهم على ظلم أعدائهم
هـ-عاطفة الأسى والحزن:

¹-المرجع نفسه، ص170.

²-المرجع السابق، ص175.

³-المرجع نفسه، ص174.

الشعر التعليمي.

تمهيد:

من الموضوعات التي توسع فيها الشعراء الأندلسيون أيضاً، فقد كان الشعر التعليمي موجوداً في العصر العباسي، وانتقل إلى الأندلس، والهدف من هذا الشعر تسهيل علم من العلوم ومحاولة حفظه وتذكره، وتنظم عادة على بحر الرجز، ومن نماذج هذا الضرب الشعري في الأندلس نذكر: ألفية ابن مالك في النحو، وألفية لسان الدين بن الخطيب في الفقه، وغيرها، بالإضافة إلى ذلك أرجوزة يحيى بن حكم الغزال في فتح الأندلس...

1-نشأة الشعر التعليمي وتطوره:

اختلفت الآراء حول نشأة الشعر التعليمي في الأدب العربي، يذهب بعضهم إلى أن العرب لم يعرفوا هذا اللون من الأدب العربي في وقت متأخر نتيجة اتصالهم بالفكر الوافد من الهنود واليونان. فقد ظهر هذا الاتجاه في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري متمثلاً في الفن التعليمي الذي يصطنعه الشعراء لنظم أنواع شتى من العلوم والمعارف تسهيلاً للحفظ، ومما لا شك فيه أن نشأة هذا الفن اقترن بظهور وتसारح أنواع المعارف والعلوم وكثرة الإقبال عليها تعليمياً وتعلماً.

يعزو الدارسون ظهور الشعر التعليمي في التراث العربي إلى التأثير الهندي في نشأته⁽¹⁾ وهناك من يرى أن للاحتكاك باليونان كان له التأثير في نشأة هذا الفن التعليمي عند العرب⁽²⁾ وبذلك كانت الأرجوزة الأموية أول شعر تعليمي ظهر في اللغة العربية، ثم تتابعت في العصر العباسي وعصر المماليك.

¹-مصطفى هدار: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، ط2، دت، ص 355.

²-أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط10، دت، ج1، ص 246.

ومن العوامل التي ساعدت على ظهور الشعر التعليمي في العصر الأموي تحضر العرب واختلاطهم بغيرهم من الأمم، بالإضافة إلى الحاجة إلى الثقافة وظهر الفرق والمذاهب السياسية والفكرية وهناك من رأى أن الشعر التعليمي نشأ نشأة عربية خالصة في أواخر الدولة الأموية معتبرا أراجيز رؤية بن العجاج⁽¹⁾ وبعدها نحا المتون اللغوية المختلفة، وبعدها تطورت الأرجوزة العربية وأصبحت تؤلف من أجل حاجة المدرسة اللغوية وما تريده من الشواهد والأمثال، وبالتالي تعد الأرجوزة الأموية أول شعر تعليمي ظهر في التراث العربي⁽²⁾.

ثم جاء العصر العباسي وتوسع الشعر التعليمي ليشمل الموضوعات الكلامية والتاريخية والعلمية والأدبية، وكان أبرز من نظم في الشعر التعليمي أبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي نظم في التاريخ والعلوم والفقه والقصص، نظم كليلة ودمنة عن الفارسية ونظم قصيدة أخرى عن الصوم، وله في التاريخ سيرة أنوشروان، وسيرة أردشير، وشارك في هذا النمط أيضا بشر بن المعتمر⁽³⁾. وانتشاره أدى إلى نمو الثقافة العربية من خلال التأثير بالثقافات الأجنبية، والتي كانت الغاية من وراء ذلك حفظ المتون العلمية ونشر الفنون لبين الناس، وقد اختلف الشعراء في نظم الشعر التعليمي فمنهم من حافظ على السمة الشعرية، ومنهم من اتجه إلى نظم ليس له من الشعر إلا الشكل الخارجي⁽⁴⁾.

2- الشعر التعليمي:

¹ -رؤية بن العجاج: من الشعراء العرب المقتدرين، ولد في بادية البصرة ونشأ فيها كان من رجاز الإسلام وفصحائهم ويكثر في شعره الأراجيز.

² -شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص238.

³ -بشر بن المعتمر: أحد أئمة المعتزلة نظم قصيدتين في التاريخ حيث أشار فيهما إلى قدرة الله وعظمته في خلقه وصولا إلى قاعدة التوحيد والاعتزال، ورد فيهما على مذهب ومعتقدات الإباضية وغيرها، نظم قصيدة أخرى في علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تفضيله والرد على مخالفيه من الخوارج.

⁴ -خالد الحلبوني: الشعر التعليمي بدايته تطوره سماته، مجلة دمشق، العدد الثالث والرابع، مج22، 2006، ص22.

يراد بهذا الشعر الأراجيز والقصائد التاريخية والعلمية التي جاءت في حكم الكتب، وكذلك الكتب التي نظمت في حكم الأراجيز والقصائد وهو ما يعبر عنه المتأخرون بالمتون النظامية كألفية ابن مالك في نحو العربية، مما يجمع قضايا العلوم والفنون وضوابطها⁽¹⁾.

ظهر هذا اللون الشعري عند الأندلسيين وتوسعوا فيه لشدة عنايتهم بالعلوم، وحرصهم على استظهارها، وهو لون من الشعر أبعد ما يكون عن الشعر بمعناه الخاص، أي الشعر الفني الذي يغلب عليه عناصر الخيال والعاطفة، يهدف إلى الإمتاع والتأثير في النفوس، وهو لا يلتقي مع الشعر الفني إلا في صفة النظم فقط. فيطلق الشعر التعليمي عموماً على الأراجيز والقصائد التاريخية أو العلمية، التي جاءت في حكم الكتب، وكذلك الكتب التي نظمها فجاءت في حكم الأراجيز والقصائد.

3- الشعر التعليمي في الأندلس:

عرفت الأندلس هذا اللون من الشعر، وشارك شعراؤهم في نظمته، وتوسعوا فيه أكثر من المشاركة في الأراجيز والقصائد التاريخية، وابتدع متأخروهم نظم المتون في العلوم المختلفة، تيسيراً للدارسين على استيعابها وتذكرها عند الاقتضاء لسهولة حفظ الشعر. ومن أمثلة ذلك في علم النحو ألفية ابن معطي، وألفية ابن مالك ومنها ألفية لسان الدين بن الخطيب في الفقه، وأرجوزته "المعلومة" في الطب، وأرجوزته في السياسة "المدنية" وأرجوزته "المعتمدة" في الأغذية. وبرز في هذا اللون الشعري الكثير من الأعلام الشعراء على نحو يحيى الغزال في القرن الثالث الهجري الذي له أرجوزة تاريخية طويلة، نظمها في فتح الأندلس، وذكر فيها السبب في غزوها، وفصل الوقائع بين المسلمين وأهلها، وكان للأندلسيين بها شغف إلى آخر عصورهم. وابن عبد ربه الذي نظم غزوات

¹ - عبد العزيز عتيق: الادب العربي في الأندلس، ص 329.

الناصر في أجوزة مطولة، وأبي طالب عبد الجبار في قيام دولة المرابطين، وابن الخطيب في تاريخ دول الإسلام⁽¹⁾.

كان الأندلسيون روادا في هذا اللون الشعر، لتوسع العلماء فيه حتى لنكاد نجد في كل علم وفن أكثر من أرجوزة أو قصيدة تجمع مسائله. والمتصفح دفاتر الأندلس يجد منظومات شتى في علوم التوحيد وأصول الفقه ومصطلح الحديث، والفرائض، والمنطق والنحو والصرف والعروض والقوافي، وعلوم البلاغة، والتجويد والرسم الإملاء.

ومن مطولات الأندلس التي تصف علم النحو وتاريخه ما جاء به محمد بن يوسف بن حيان النفزي الذي يقول فيها⁽²⁾:

به يعرف القرآن والسنة التي	هما أصل دين الله ذو أنت عابده
لقد حاز في الدنيا فخارا وسؤدا	أبو الأسود الديلي فللجّر سائده
هو استنبط العلم الذي جلّ قدره	وطار به للعرب ذكر نعاوده
وساد عطا نجله وابن هرمرز	ويحي ونصر ثم ميمون ماهده
وعنيسة قد كان أبرع صحبه	فقد قلدت جيد المعالي قلائده
إلى أن أتى الدهر العقيم بواحد	من الأزد تنميه إليه فرائده
إمام الورى ذاك الخليل بن أحمد	أقرّ له بالسبق في العلم حاسده

النحو في مطولته هو أساس العلوم وبه تعرف مقاصد القرآن والسنة، ويذكر الناظم ببعض علمائه من أمثال أبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي، كما يعرج على بعض الأحداث التاريخية التي واكبت هذا العلم، فهي تعتبر وثيقة علمية تاريخية في علم النحو العربي.

¹ -أحمد بسبح: لسان الدين بن الخطيب عصره بيئته حياته وآثاره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994، ص20.

² -لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص35.

وهناك قصيدة طويلة أخرى في فضل الصحابة العشر وأهل البيت نظمها شاعر المرية أبي عبد الله محمد بن الهواري المعروف بابن جابر، يعدد فيها فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه بقوله⁽¹⁾:

له الفضلُ والتقديمُ في كلِّ مشهدٍ	فمنهم أبو بكر خليفته الذي
لإنفاقه للمال في الله قد هُدي	وصديقٌ هادي الخلق والمؤثر الذي
يبرئها آي الكتاب الممجّد	وصهرُ رسول الله وابنته التي
فثالثنا ذو العرش أوثقُ منجدٍ	وصاحبه إذ قال في الغار لا تخفْ

4-خصائص الشعر التعليمي: يتسم الشعر التعليمي بجملة من الخصائص أهمها:

1-التركيز على الخطاب العقلي والابتعاد عن الانفعال الشعوري والميل إلى التفكير والتأمل، وذلك بسبب المستوى الراقى الذي وصلت إليه الحياة الفكرية في هذا العصر، فالشعر التعليمي يثير القدرات العقلية للمتلقى ويدفعه بعيدا عن الأحاسيس والعواطف.

2-يتميز الشعر التعليمي بتكيف العبارات، فهو لا يحتاج إلى العبارات الطويلة والمفصلة، لذلك تنظم القصائد دون زيادة أو حشو في الكلام حتى يسهل حفظها من قبل المتعلمين.

3-التنوع في الموضوعات حيث يتناول الشعر التعليمي الكثير من الموضوعات المتنوعة كأشعار التاريخ والقصص والفقه والنجوم والفلك وغيرها من الموضوعات المختلفة⁽²⁾.

لا يختص الشعر التعليمي عروضيا ببحر دون آخر إلا أن أكثر ما كتب في هذا الضرب الشعري نظم على بحر الرجز، وكان أكثر اعتماد شعراء الشعر التعليمي على المزدوج من الرجز، وهو الذي يستقل فيه كل مصراعين بقافية حتى لقبوه بحمار الشعر لسهولة

¹-المقري: نفح لوطيب، ج9، ص201.

²-عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص329.

الحمل عليه. ولكونه أسهل البحور وأسلسها للنظم، وفيه قابلية للاتساع والشمول، بالإضافة إلى أن بساطة إيقاعه جعلته أداة طيعة في التعبير عن الحقائق والمعارف⁽¹⁾.

5- القيمة الفنية للشعر التعليمي:

هذا اللون الشعري من الناحية الفنية ليس بأكثر من كلام موزون ومقفى خال من الذوق الشعري ومن الروعة الفنية لافتقاره مقومات الشعر كالعاطفة والتجربة الشعورية والخيال لأنه «لون لا يراد به إلى التعبير عن الوجدان والعواطف الشخصية، وإنما يراد به إلى المعرفة والثقافة وان تضم مسائل علمية خاصة لا بين دفتي كتاب، ولكن في قصيدة من القصائد»⁽²⁾.

إن هذا اللون من الشعر ابعده ما يكون فنياً عن الشعر بمعناه الخاص أي الشعر الفني الذي يغلب عليه عنصر الخيال والعاطفة ويهدف إلى الإمتاع والتأثير في النفوس والشعر ومهما قيل في الشعر التعليمي، وقللوا من قيمته الفنية فلا يمكن أن يجرد من فضائل يحملها، ولا ينكر أحد ما قام به من دور في حفظ قسط كبير من التراث الديني واللغوي والعلمي للأجيال المتلاحقة.

¹- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص 240.

²- شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، دت، ص 72.

الموشحات الأندلسية.

تمهيد:

الموشح فن جديد من فنون الشعر العربي يمتاز بجماله الفني وكثرة صوره الشعرية وتعقيدها في صناعة الشعر وكثرة قوافيه وأدواره وبأوزانه الكثيرة التي تلائم الذوق وتوائم الموسيقى والغناء وتتمشى مع الترف وجمال الفن وهذا الفن الشعري هو وليد الحياة الفنية الأندلسية والسبب في ظهوره هو تطور القصيدة العربية الأصيلة فقد سارت في البداية على سنن العرب، فكانت بعثاً على الجزالة والأسلوب السلس.

ثم سارت في طريق المحدثين فانتحلت بعداً فكرياً جديداً وامتزجت بالفلسفة والمنطق، وبين هذين الاتجاهين ضاعت الغنائية الرقيقة، فكان لزاماً على الشعراء سلوك طريق يعيد للشعر شاعريته المفقودة، وفي هذا اتسع نطاق الموشح لتتسع الناحية الغنائية، فالموشح بهذا المعنى ثورة على طبيعة القصيدة ولذلك يعد حركة تجديدية، وهو أيضاً رجعة إلى الغنائية من وجهة أخرى أي زخرف حضاري جذاب.

1- المصطلح والمفهوم:

استمد هذا اللون الشعري معناه من الوشاح فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: «الوشاح حلي النساء، كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر تتوشح المرأة به، والوشاح عند اللغويين ترتديه المرأة للزينة»⁽¹⁾.

الموشح في اللغة من الوشاح والإشاح، وكله من حلي النساء كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر، وعند الفيروز آبادي «الوشاح بالضم والكسر: كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما، معطوف أحدهما على الآخر، وهو أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحتها،

¹ - ابن منظور: لسان العرب، ج2، مادة (وشح)، ص632.

جمع وُشَح وأوشحة ووشائح»⁽¹⁾. والموشح لون من ألوان النظم ظهر بالأندلس في عهد الدولة المروانية بالأندلس، ويختلف عن غيره من ألوان النظم بالتزامه قواعد معينة من حيث التقفية، وخروجه أحيانا عن الأعاريض الخليلية، ويخلوه أحيانا من الوزن الشعري، وباستعماله اللغة الدارجة والعجمية في بعض أجزائه وياتصاله الوثيق بالغناء.

تناولت الكثير من المصادر تعريف الموشحات وخصائصه الفنية، وأكدت على أصله الأندلسي، ومنهم ابن دحية صاحب المطرب الذي ذكر هذا الفن بقوله: «الموشحات زبدة الشعر وخلاصة جواهره وصفوته، وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق»⁽²⁾.

ويمكن القول: إن الموشح نوع من النظم يتألف من فقرات تسمى أغصانا هي عبارة عن أشطار أبيات شعرية بعدد معين وقافية واحدة، ويعقب كل فقرة قفل مكون من أشطار في نفس البحر لكنه بقافية مختلفة تلزم في كل الأقفال، أما الأغصان فقوافيها قد تختلف ولكنها لا تكون إلا من نفس البحر⁽³⁾.

2-النشأة والشكل والوزن:

الموشحات فن أندلسي خالص لم يعرف بصورته المكتملة إلا على أرض الأندلس وليس في هذا الرأي ما يتعارض، والقول بأن هناك أعمالا ظهرت بالمشرق، هي بمثابة الإرهاصات أو التمهيد لظهور هذا اللون الجديد الذي بزغت شمس في أخريات القرن الثالث الهجري على يد شعراء من مثل: محمد بن محمود القبري، ومقدم بن معافى الذي ينتسب بدوره إلى قبيلة القريية من قرطبة⁽⁴⁾.

¹-الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مادة(وشح).

²-ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار العلم للطباعة والنشر، بيروت، ص204.

³-حكمة علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي، ص122.

⁴-محمد زكريا عناني: تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1999، ص167.

نشأت الموشحات في الأندلس أواخر القرن الثالث الهجري أين ازدهرت في هذه الفترة الموسيقى وشاع الغناء من جانب، وزاد احتكاك العنصر العربي بالعنصر الإسباني من جانب آخر، فكانت النشأة استجابة لحاجة فنية، لأن الأندلسيين قد أولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء منذ أن قدم زرياب، وأشاع فيهم فنّه، فكان لازدهار الغناء والموسيقى تأثير في الشعر.

وقد اتخذ هذا التأثير صورة خاصة في الحجاز والعراق حين ازدهر فيهما الغناء والموسيقى في عهد بني أمية ثم في العصر العباسي، وكذلك اتخذ هذا التأثير صورة مغايرة في الأندلس، فيظهر أن الأندلسيين أحسوا بتخلف القصيدة الموحدة إزاء الألحان المتنوعة، وشعروا بجمود الشعر في ماضيه التقليدي الصارم أمام النغم في حاضره التجديدي المرن⁽¹⁾ وأصبحت الحاجة ماسة إلى لون جديد من الشعر يواكب الموسيقى والغناء في تنوعهما واختلاف ألحانهما ومن هنا ظهر هذا الفن الشعري الغنائي الذي تتنوع فيه الأوزان، وتتعدد فيه القوافي والذي تعتبر فيه الموسيقى أساساً من أسسه فهو ينظم ابتداءً للتلحين والغناء⁽²⁾.

من الناحية الاجتماعية إن امتزاج العرب بالإسبان، وظهور عنصر فيه عروبة وإسبانية أدى هذا التمازج إلى أن عرف الأندلسيون العامية اللاتينية Romance كما عرف العامية العربية، فكان هناك ازدواج لغوي نتيجة للازدواج العنصري، فنشأ أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية، فمن المقرر أن الموشحات كانت منذ نشأتها تنظم بالعربية الفصحى إلا الفقرة الأخيرة منها وهي الخرجة، فقد كانت تعتمد على عامية الأندلس وهي عامية العربية المستخدمة لألفاظ من عامية اللاتينية، فكان للموشحات جانبان: جانب موسيقي

¹-علي محمد سلامة: الأدب العربي في الأندلسي، ص 399.

²-أحمد هيك: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 143.

يتمثل في تنويع الوزن والقافية، وهذا استجابة لحاجة الأندلس الفنية حين شاعت الموسيقى والغناء، وجانب لغوي يتمثل في كون الموشحة فصيحة في فقراتها عامية في خرجتها وهذا الجانب قد جاء نتيجة للثنائية اللغوية التي تعكس العنصر البشري الأندلسي⁽¹⁾.

وأما بداية التوشيح فلا ندري بالتحديد متى كانت، وعلى يد من نشأت، فقد ذكر المقري ما قاله ابن خلدون مقدمته: «وكان المخترع له بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد، والواقع أنه لم يصلنا شيء من موشحات مقدم بن معافى ولا من ابن عبد ربه، وهذا ما يؤكد غموض نشأة هذا الفن، وكان أو من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية»⁽²⁾.

وقد عرف في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادي على أيدي مجموعة من الشعراء، وأقدم ما وصلنا من هذا الفن هو لعبادة القزاز (ت422هـ)⁽³⁾. ومن أشهر الوشاحين الذين تركوا أثرا في صناعة الموشح نذكر: يوسف بن هارون الرمادي (ت403هـ) وهما شاعران وعبادة بن ماء السماء (ت419هـ) ومحمد بن عبادة القزاز (ت488هـ) شاعر المعتصم بن صمادح بالمرية، وأبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الملقب بالأبيض (ت525هـ) وأبو بكر بن اللبانة (ت507هـ) والأعمى التطيلي (ت525هـ) والحفيد بن زهر (ت557هـ) وابن زمرك (ت793هـ) لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ)⁽⁴⁾.

3-بناء الموشح:

¹-محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم، الجزائر، ط1، 2012، ص50.

²-المقري: نفح الطيب، ج2، ص245.

³-محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية، ص59.

⁴-محمد عبد المنعم خفاجي: الادب الأندلسي التطور والتجديد، ص403.

جاء في كتاب دار الطراز لابن سناء الملك أن الموشح هو «كلام منظوم على وزن مخصوص وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات (أدوار) ويقال له التام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع، فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات»⁽¹⁾.

يتشكل الموشح من وحدتين أساسيتين هما القفل والبيت، تتكرر عدة مرات، وإذا أهمل الوشاح الوحدة الأولى (القفل) وبدأ بالوحدة الثانية سمي الموشح بالأقرع، ويتكون الموشح النموذجي في العادة من ستة أقفال تحصر بينها خمسة أبيات⁽²⁾ لكن الوشاح غير ملزم بذلك إن شاء يزيد أو ينقص، واجتماع القفل والبيت التالي يسمى دورا، وبعضهم يسميه بيتا، وعلى هذا الأساس فالموشح يتشكل من ستة أقفال وخمسة أدوار أو أبيات وقفل ختامي يدعونه الخرجة⁽³⁾. والموشح يقوم على هيكل مقسم إلى عدة أجزاء وهي: المطلع، الغصن، السمط، البيت، الدور، القفل، الخرجة⁽⁴⁾. ومن نماذج شكل الموشح يقول ابن بقي القرطبي⁽⁵⁾:

عبث الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجدِ فلبت أدمعي ————— المطلع
 ————— غصن ————— غصن —————
 سمط ————— أيها الناس فؤادي شغف
 سمط ————— وهو في بغي الهوى لا ينصف البيت { الدور
 سمط ————— كم أداريه ودمعي يكف

¹-ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1949، ص25.

²-إحسان عباس: تاريخ الادب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص235.

³-محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، ص62.

⁴-حكمة علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي، ص124.

⁵-جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص316.

أيها الشادن من علّمكا بسهام اللحظ قتل السبع ————— القفل الأول

بدر تم تحت ليل أغطش
طالع في غصن من فشش
أهيف القدّ بخد أرقش

ساحر الطرف وكم ذا فتكا بقلوب الأسد بين الأضلع ————— القفل الثاني

أي ريم رمته فاجتبا
وانثنى يهتز من سكر الصبا
كقضيّب هزه ريح الصبا

قلت: هب لي يا حبيبي وصلكما واطّرح أسباب هجري ودع ————— القفل الثالث

قال: خدي زهرة مذ فوّفا
جردت عيناى سيفا مرهفا
حذرا منه بأن لا يقطفا

إنّ من رام جناه هلكا فأزل عنك علا الطمع ————— القفل الرابع

ذاب قلبي في هوى ظبي غرير
وجهه في الدجن صبح مستتير
وفؤادي بين كفيه أسير

لم أجد للصبر عنه مسلكا فانتصاري بانتساب الأدمع ————— القفل الخامس (الخرجة)

1.3-الخرجة:

يسمى القفل الأخير بالخرجة وهي أهم جزء في الموشحة⁽¹⁾ ومقامها عند الوشاحين
مقام المطلع في القصيدة عند الشعراء، يخصصونها بعناية فائقة، ومن نماذجها:

¹-محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، ص71.

1.1.3-الخرجة المعربة: وهي التي تأتي بلغة عربية فصيحة مثل قول ابن بقي في الغزل⁽¹⁾:

تجاوزَ الحدَّ قلبي اشتياقًا
وكلفَ السَّهْدَا مَنْ لَوْ أَطاقًا
قلتُ وقدْ مدًّا ليلي رُواقًا

ليلي طويلٌ ولا مُعِينُ يا قلبَ بعضِ الناسِ أَمَّا تَلينُ — (القفل الأخير-الخرجة)

2.1.3-الخرجة العامية: وهي التي تأتي بلهجة عربية محلية: يقول الأعمى التطيلي⁽²⁾:

أَلقَاكَ مِنْ عَفْرِ فلا أناجيكَا إِلَّا اشتِياقُ

واللهِ ما أدري قدِ التَّوى فيكَا أَمري وضاقُ — (الغصن الأخير)

أشدو وما عُذري أَلأُأاضيكَا إِلَّا العِناقُ

يا ربَّ ما أصبرني نَرى حبيبُ قلبي ونَعشَقُ

لو كانَ يكونُ سُنَّةً فيمَنْ لَقى خُلُو يُعَنَّقُو — (خرجة عامية)

3.1.3-الخرجة الأعجمية: وهي التي تأتي بلغة رومانشية أعجمية ووشاح المشرق في ما

بعد استعملوا في الخرجة لغات أخرى كالفارسية والتركية، مثل قول الوزير ابن المعلم⁽³⁾:

بَن يا سَحَّارَة venyaSahhara

أَلْب قِشْت كَن بِلْفُغُور Alba questa con bel vegore

كوئْدُ بني بدي أَمور Cuando Vene bide Amore

وترجمته: تعالي يا سحارة... الفجر الذي هو جميل...حين يجي يتطلب حبيباً.

4-أوزان الموشحات:

¹-إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 238.

²-المرجع السابق، ص 239.

³-المرجع نفسه، ص 240.

يختلف علم العروض عن سائر العلوم من حيث النشأة؛ فإذا كان كل علم ينشأ أو يُستحدث إنما ينمو باشتغال علمائه به جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر حتى يبلغ ذروة نضجه واكتماله، فإن العروض قد أخرجها الخليل بن أحمد علما يكاد يكون متكاملا. ولعل ذلك هو السر في أن من أتى بعد الخليل من العروضيين أو الشعراء، لم يستطيعوا أن يزيّدوا على عروضه أي زيادة تذكر أو تمس الجوهر.

فمنذ أن فرغ الخليل من حصر الشعر العربي في خمسة عشر بحرا تاما مع بعض مجزوءاتها، لم يحدث تطور أو تجديد في هذه الأوزان، إلا زيادة بحر المتدارك الذي استحدثه الأخفش⁽¹⁾. ولم يستطع المتأخرون الخروج على أوزان الخليل التي استتبها من أوزان الشعر الجاهلي، ولما كانت أوزان الشعر هي موسيقاه، فإن هناك إذن صلة تجمع بين موسيقى الشعر والموسيقى بصفة عامة. وكما تطورت الموسيقى العربية خلال العصور، وكانت موسيقى العصر العباسي غير موسيقى العصر الأموي، وهما غير موسيقى الجاهلية، كان المأمول أن يُحدث الشعراء تطورا مماثلا في موسيقى الشعر، ولا يقفوا عند الحد الذي رسمه الجاهليون، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث.

وظل الشعر مقيدا بأوزان الشعر الجاهلي وقوافيه، حتى اخترعت الموشحات الأندلسية، فكانت أول محاولة جريئة للتجديد في أوزان الشعر العربي وقوافيه، والخروج بها على ما ألفه الشعراء السابقون.

لم يلتزم الأندلسيون في الموشح قافية واحدة أو وزنا واحدا، لأنهم وجدوا أن إيجاد وزن يناسب النغم أسهل من إيجاد نغم يناسب الوزن، لذلك كان الموشح تابعا لما تقتضيه الأنغام، فتارة يوافق أوزان الشعر العربية التي ابتكرها الخليل، وتارة يخالفها، ومنها ما جاء

¹ -أحمد بن عيسى الثقفي: قضايا الشكل والمضمون في الموشح الأندلسي في عصر بني الأحمر، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، السعودية، 2006، ص 587.

على أوزان العرب ومنها ما لا وزن له، فقول ابن بسام أنها جاءت على غير أعاريض أشعار العرب معناه أنها على غير الأعاريض المألوفة أي على الأعاريض المهملة⁽¹⁾. وقول ابن سناء الملك أنها ليست جارية على الأوزان التي تنظم فيها صنوف الشعر، فبعض أوزان الموشحات من الأوزان العربية، وبعضها نابٍ لا يمكن للأذن أن تستسيغه إلا عن طريق التلحين، وعلى هذا فأوزان الموشحات لا تخرج عن التفعيلات العربية، فإذا كانت في نطاق الكلام المعرب فهي ذات تفعيلات متناسقة، سواء استعمل الوشاح عددا واحدا من التفعيلات، أو أعدادا متباينة المقدار، فالإيقاع فيها عربي خالص، لكن بعض أوزانها مجزأة⁽²⁾. وعموما تنقسم الموشحات إلى قسمين من ناحية أوزانها، فمنها ما جاء على أوزان أشعار العرب، ومنها ما لا وزن له فيها ولا إمام به بها كما يذكر ابن سناء الملك⁽³⁾.

وتبين من أعاريض الموشحات أن اختراعها كان من أجل الغناء، ولذلك لا يطلب من الشاعر الوشاح أن يتقيد بوزن قديم معروف تقييدا شديدا؛ لأن الذي يميز هذا الفن ويكسبه جمالا ليس العروض المقنن؛ بل حرية الوزن استجابة للأذن الموسيقية وضرورات التلحين فهو فن خاضع للحرية والتجديد والتلحين والغناء⁽⁴⁾.

5-موضوعات الموشحات:

إذا كانت الغاية الأساسية من الموشحات هي الغناء فكان لابد أن تتناسب موضوعاتها وهذه الغاية، فقد اهتم الوشاحون أول الأمر بالغزل والخمر والمجون ووصف

¹-يوسف عيد: دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2006، ص369.

²-ابن سناء الملك: دار الطراز، ص47.

³-المصدر نفسه، ص33.

⁴-جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، ص302.

الطبيعة، ودخل المديح في هذا الفن أيضا، لأن أفضل مجالس الغناء كان يعقد في قصور الملوك والأمراء، ف اتخذت الموشحات سبيلا للحصول على عطايا الممدوح، ومن الأغراض التي عالجها فن الموشح التصوف الذي نجده عند كل من محي الدين بن عربي، وأبي الحسن الششتري، وهذه الموشحات تضمنت عبارات ومصطلحات صوفية وإشارات ورموز يكتنفها الغموض، كما يلحق الزهد شعر التصوف في الموشحات، وفي العموم وظف الوشاحون كثيرا من الأغراض كالغزل وحدهن والغزل المختلط بغيره من الأغراض الأخرى، ووصف الطبيعة، والخمریات، والمدح، والرثاء والهجاء، والأغراض الدينية كالتصوف، والزهد والمديح النبوي⁽¹⁾.

لم يترك فن التوشيح ميدانا من الميادين الشعرية المعروفة إلا عالجها، فكما هو معروف فقد أثرت طبيعة الأندلس على شعرائها ووشاحيها فتعلقوا بها ولم يتخلوا عنها في أشعارهم وقصائدهم، وكان لها الحظ الأوفر في الموشحات، ونادرا ما نقرأ موشحة من دون أن نرى فيها ذكرا للطبيعة بألوانها وأزهارها وعمرانها، يقول ابننقي⁽²⁾:

يومنا يوم أنيق	يوم شرب والتذاد
طرزت فيه البروق	لابسا أثواب لاذ
وسقى الغيم الرقيق	ماء ورد برذاذ
أظهر السحر المبينا	حين رشّ الياسمينا
وبكى من دون عين	فضحكنا فاكهينا

6- الخصائص الفنية:

سبق لنا الإشارة إلى أن الموشح نشأ تلبية لحاجة فنية تتعلق بالموسيقى والغناء، وخصوصا الغناء الشعبي، وما يقترب منه، والنظم لهذه الحالة لا يقتضي الجزالة في

¹ -محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، ص 85.

² -يوسف عيد: دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، ص 378.

الألفاظ ولا القوة في التراكيب ولا العمق في المعاني ولا البعد في الخيال، لذلك فالنظم الرقيق والمعنى اللطيف والألفاظ العذبة ذات الجرس الموسيقي والأداء المباشر والسهل الواضح، كل ذلك يسيطر على الموشح والموشح بصفة غالبية يميل إلى السهولة والعفوية والتلقائية⁽¹⁾.

يرواح الوشاح بين القوافي المطلقة والقوافي المقيدة في أجزاء الموشحة وأسطارها، وكثيرا ما يكون تقييد القافية فرصة للوشاح للتخلص من الحدود النحوية والقيود والإعرابية. والبحور الشعرية التي يلجأ إليها الوشاحون حين ينتقلون بالموشح من غير الشعري إلى الشعري، هي بحور قليلة مثل الرمل والهزج ومخلّع البسيط والخفيف والمنسرح، ويعتمد الموشح على التنويع في النغم، وهذا يتعلق بالمعرفة الموسيقية في تغيير الأوزان وتنويع القوافي، وهنا تبرز مقدرة الوشاح في صياغة العبارة وأداء المعنى الطريف الجديد أو المولّد من العتيق في شكل حسن ونغم بارع. وقد تبدو العلاقة غير وثيقة بين فقرة وأخرى داخل الموشحة الواحدة، إذ يكتفي الوشاح بالإطار العام للموشحة وفكرتها العامة.

7- نماذج من الموشحات:

يقول لسان الدين بن الخطيب في موشحة منها⁽²⁾:

يا حادي الجَمالِ عرّج على سلاّ قد هام بالجَمالِ قَلْبِي وما سلاّ
عرج على الخليج والرّمْل في الحَمَى
في المنظرِ البهيجِ بالبَيْض كالِدَمَى
والأَبْطَحِ النسيجِ مِنْ صَنَعَةِ السَّما
للهِ من خِلالِ تَخْتالُ في حُلَى لم تُلَفِ في اعتدالِ عَنْهِنَّ مُعَدِلَا

¹-مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده، ص 983.

²-محمد زكريا عناني: تاريخ الأدب الأندلسي، ص 221.

وَطُفُّ بِالرِّبَاطِ بِرُكْنِ طَائِفِ
 بِمَنْزِلِ اغْتِبَاطِ دَارِ الْخَلَائِفِ
 مُقَدَّسِ الْمَوَاطِي جَمِّ الْمَعَارِفِ
 كَمْ مِنْ سَنَاءِ هِلَالٍ بِأَفْقِهِ انْجَلَى أَنْحَى عَلَى الظَّلَالِ فَاَنْجَابَ وَانْجَلَى
 جَنَى النَّعِيمِ دَانٍ وَالْبَحْرِ وَالْغَدِيرِ
 أَهْلُهُ الشَّوَانِي فِي أَفْقِهِ تَسِيرُ
 وَقَهْوَةُ الدَّنَانِ يَدِيرُهَا مُدِيرُ
 أَعْرُ كَالْغَزَالِ مُقَدَّدَ الطُّلَا يَسْطُو وَلَا يُبَالِي بِالْأُسْدِ فِي الْفَلَا
 أَوْلَى إِلَيْكَ أَوْلَى مِنْ ذِكْرِ مَعَهْدِ
 أَكْثَرَتْ فِيهِ قَوْلًا فِي كُلِّ مَشْهَدِ
 خُذْ فِي امْتِدَاحِ مَوْلَى نَدْبِ مُؤَيِّدِ
 مَمَجَّدِ الْجَلَالِ مُشْهَرِّ الْعُلَا قَدْ فَاقَ فِي كِمَالِ وَرَاقَ مُجْتَلَى
 مُوَافِقُ الْخَلِيلِ فِي الْأَسْمِ وَالسَّمَاتِ
 ذِي الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ الرَّائِقِ الصِّفَاتِ
 مُكْرَمِ الدَّخِيلِ وَمُجْزِلِ الْهَبَاتِ
 وَمُحْسَبِ النَّوَالِ لِمَنْ تَوَسَّلَا وَرَافِعِ الْمَعَالِي سُحْبًا مُضَلَّلَا
 يَا مَنْ عُلَاهُ دَرَّتْ بِكُلِّ نَائِلِ
 خُذْهَا إِلَيْكَ جَرَّتْ ذَيْلَ الْخَمَائِلِ
 وَفِي حُلَاكَ أَزْرَتْ بِقَوْلِ قَائِلِ
 يَا مَنْزَلَ الْغَزَالِ حَيَّيْتَ مَنْزَلَا فَمَا أَرَى بِسَالٍ عَنْهُ وَإِنْ سَلَا

لا شك أن الموشحات نمط جديد ولون مبتدع في الادب، طوعت الشعر للغناء إلى حد كبير، وقربت أسلوبه للجماهير، وقصرت المسافة بين العربية والعامية، وارتفعت بأذواق الجماهير.

الأزجال الأندلسية.

1-الأزجال: المصطلح والنشأة:

الزجل في المعاجم العربية هو الصوت، ويقال: الحمام زاجلا، لصوته الرخيم، وجاء في معجم اللسان «الزجل التطريب ورفع الصوت والترخيم، والزجل بالتحريك اللعب والجملة ورفع الصوت، وخص به التطريب»⁽¹⁾ وسمي هذا اللون من ألوان الأدب زجلا لرفع الصوت فيه وترجيعة به في الإنشاد.

والزجل هو ضرب من ضروب النظم يختلف عن القصيدة من حيث الإعراب والقافية، كما يختلف عن الموشح من حيث الإعراب، ولا يختلف عنه من جانب القافية إلا نادرا، ويعد موشحا ملحونا يكتب بلغة مهذبة غير معربة، لذلك يعد نوعا من الشعر العامي.

والأندلس بيئة الزجل الأولى كالموشح، وإن كان متأخرا عن الموشحات، فقد ذاع فن الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التي نشأ فيها، وقد سمي به الأندلسيون الفن الشعري العامي المقابل للموشحة، وفي اسمه ما يدل على أنه نشأ للتغني به في الطرقات والأسواق والمحافل العامة⁽²⁾. واشتمل على أنواع من الشعر كالوصف والغزل، وكثيرا ما كان الزجل أصدق في التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح لقربه من تعبير العامة، واشتماله على عباراتهم المألوفة وعدم احتياجه للتكلف في الصناعة واختيار اللفظ.

2-أسباب ظهوره:

لا تختلف الأسباب التي أدت إلى ظهوره عن الأسباب التي أدت إلى ظهور فن الموشح، فهو كذلك ظهر في جو الغناء والموسيقى، إضافة إلى ذلك شيوع الموشح بين

¹-ابن منظور: لسان العرب، مادة (زجل).

²-شوقي ضيف: تاريخ الادب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص163.

العامة والخاصة، وإقبال الناس عليه لسهولة وطواعيته للحن والحفظ، واختلاطه بعموم الناس بعدما كان مقتصرًا على قصور ومجالس الأمراء. يقول ابن خلدون في مقدمته: ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه، وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيه إعرابًا، واستحدثوه فنا سموه الزجل⁽¹⁾.

3-نشأة الأزجال:

تذكر الكتب والأخبار الأندلسية أن أول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبوبكر ابن قزمان (ت554هـ)⁽²⁾ ولم تظهر حلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت إلا في زمانه، وهو إمام الزجالين، إلا أن التساؤل عن مخترع الزجل يعده الدارسون من قبيل الجهد الضائع لأن الأغنية الشعبية تظل في العادة جهد جنود مجهولين، ولا بد أنه مضى وقت غير قصير قبل أن ينتقل هذا اللون من الشعبية الخالصة إلى الفرد الزجال.

من الأقوال التي تثبت أن الزجل فن أندلسي مستحدث قول ابن خلدون في مقدمته: «ولما شاع التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيها إعرابًا، واستحدثوا فنا سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على

¹-محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية، ص106.

²-ابن قزمان: هو أبوبكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان عاش في عصري المرابطين والموحدين ينحدر من بيت عريق من قرطبة وأفراد أسرته ذوو جاه وسلطان بين عالم رئيس ووزير، نشأ في قرطبة مثل أترابه نشأة علمية أدبية، وهي نشأة ألهته ليكون أدبياً وكاتباً وشاعراً ووشاحاً، له شعر روى له ابن الأثير بعض المقطوعات في كتابه تحفة القادم، وأما في فن التوشيح فقد روى له صفي الدين الحلي صاحب العاقل الحالي موشحة غزلية غزلاً مادياً صريحاً، وطارت شهرته في الزجل لا بقرطبة وحدها فحسب، بل في كل مدن الأندلس وفي المغرب والمشرق، توفي سنة555هـ. (شوقي ضيف: تاريخ الادب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس: ص168).

مناحيهم لهذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة» وقد مرّت نشأة الزجل في الأندلس بمجموعة من المراحل أهمها:

1.3-مرحلة زجل العامة أو شعر العامة، ويتمثل في الأغنية الشعبية العامة، التي تتبع تلقائياً لدى بعض العامة بباعث تجربة شخصية، أو من وحي حدث عام أو موقف معين، ثم تشيع على ألسن الناس، ويتغنون بها فرادى وجماعات .

فإذا كان للمتقنين شعرهم الفصيح ممثلاً في القصائد والموشحات التي لا ترقى إلى أفهام العامة، فإن لهؤلاء أيضاً شعرهم الشعبي ممثلاً في أغانيهم الشعبية التي هي مظهر يعكس نفسيتهم، وحالتهم العقلية، وآرائهم الاجتماعية، وآدابهم وأخلاقهم .

2.3-مرحلة زجل الشعراء المعربين، ويبدو أنه جاء تالياً في النشأة الزجل العامة ولعل الشعراء الذين حاولوا هذا النوع من الزجل قبل عصر ابن قزمان كانوا مدفوعين إليه بالرغبة في أن تنتشر أزجالهم المصطنعة بين الطبقات المثقفة كنوع من الطرافة، أو بالرغبة في أن يعرفوا لدى العامة معرفتهم لدى الخاصة وذلك بوضع أزجال لهم يتغنون بها، وربما لرغبتهم في التميز بالزجل عندما وجدوا أنفسهم لا يقعون مع فحول الشعراء المعاصرين لهم في شيء.

3.3-مرحلة زجالي القرن السادس الذي شهد نهاية عصر ملوك الطوائف وبداية عصر المرابطين في الأندلس. ولما كان ملوك المرابطين لا يتقنون اللغة العربية، فإن شعراء القصائد والموشحات لم يلقوا منهم تشجيعاً، ولهذا ازدهر الزجل في هذا القرن ومن زجالي القرن السادس أبو بكر بن قزمان إمام الزجالين.

4.3-مرحلة عاصرت ظهور دولة الموحدين وسابق حلبة الزجالين في هذا العصر هو أحمد بن الحاج المعروف باسم مدغليّس الزجال.

لذلك يرتبط بنشأة فن الزجل الكثير من الزجالين على غرار أخطل بن نمارة، وابن راشد، وكان لابن قزمان فضل الشهرة والتجويد، وعاصره محلف الأسود، واتصلت الأزجال منذ نشأتها إلى آخر عهد ابن قزمان بالتوشيح والغناء⁽¹⁾ فلما جاء بعدهم مُدْغَلِيس الذي اشتهر بالانطباع والصنعة في الأزجال، الذي عد خليفة ابن قزمان في زمانه ظهر على يديه، واقتنر باسمه نوع جديد من الزجل وهو القصيدة الزجلية.

يعد ابن قزمان ذو الفضل الأكبر في إعطاء الزجل شكله النهائي في مراحل التطور الذي يبدأ بابن نمارة وينتهي بابن قزمان الذي عرف بإمام الزجالين بالأندلس⁽²⁾ وكان أهل الأندلس يقولون: إن ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ومُدْغَلِيس بمنزلة أبي تمام، وبالنظر إلى الانطباع والصناعة، فإن ابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومُدْغَلِيس ملتفت إلى اللفظ أدبيا معربا لكلامه مثل ابن قزمان⁽³⁾.

4- من نماذج الزجل:

يقول ابن قزمان لما خرج إلى منتزه مع أصحابه فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء فيه على صفائح من حجر⁽⁴⁾:

وعريش قام على دكان	بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان	فيه غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان	فيه الفواق
وانطلق يجري على الصفاح	ولقى الصباح

ويقول عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس⁽¹⁾:

¹-محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية، ص115.

²-إحسان عباس: تاريخ الادب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 260.

³-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، ص416.

⁴-المرجع نفسه، ص415.

ورذاذ دقبنزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضفض وتري الآخريذهب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب
وتريد تيجي إلينا ثم تستحي وتهرب

ومن نماذج الزجل نورد هذه المقطوعة التي يقول فيها⁽²⁾:

يا جَوهرَ الجَلالِ يا فخرَ الأندَ لوس
طولُ ما نَكُنْ بجاهكُ لِسْ نشتكي بُوس - قفل ذو أربعة أشطار -
صار الزمانُ صديقي أَرادُ أو لو يَريدُ
وَرِيتُ أنا سُروري جَديدُ وَرّا جَديدُ - أغصان -
وكلّ ليلةَ فرحَه وكلّ ليلةَ عَيدُ
وأجليتُ فيه آمالي وبتّ أنا عروسُ - قفل ذو شطرين -
5-موضوعات الزجل:

الزجل الأندلسي مثله مثل الموشحات من حيث تناوله لموضوعات الشعر التي تناولتها القصيدة المعربة. والذي يتصفّح ما وصل من أزجال الأندلسيين يرى أنهم قالوا الزجل في الغزل والمدح والوصف والخمريات والمجون والتصوف وغير ذلك من فنون الشعر التقليدية المعروفة .

6-بناء الأزجال:

يبدو أن الزجالة قد اصطَلحوا على بناء وتقسيم أزجالهم بمصطلحات الموشحات، فقد تحدثوا عن المطلع والبيت والخرجة، وهي نفس الأقسام التي ذكرها الوشاحون، وهذا

¹-المرجع نفسه، ص416.

²-إحسان عباس: تاريخ الادب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص262.

دليل ان الزجل قد تفرع من الموشح، واستعار منه أقسامه ومصطلحاته، وقد تعود ابن قزمان على ختم أزجاله بذكر عدد أجزائها، وتسميتها، يقول في مقطوعة من زجله⁽¹⁾:

من تسع أبيات هي أزجال لس فيها طول
لسنّه ذا مما يعجزني شيّا نقول
وكّن نزيدك بويّات عاد لولا الفضول
لم قطّ نقل بيّت ولا منقال إلا ارتجال

ورد هذا الزجل في الديوان بثمانية أبيات، وقد ضاع البيت التاسع منه، وبدلاً من أن يقول أبيات قال بويّات للتصغير مفضلاً التحدث بلغة الجمهور الأندلسي، وقد يكون قد قصد ابن قزمان مصطلح القفل بلفظ المنقال لأن القفل هو ما يتكرر في المقطوعة، وفي موضع آخر يقول في خرجة من زجل ذي تسعة أبيات، وعبر عنها بكلمة أسطار⁽²⁾:

فكذاك لس ثم زجال أن يقلّ ذا التسعة أسطار

جمعت الأزجال بين القصائد والموشحات من حيث الأشكال والأوزان. فالقصائد الزجلية، في أول صورة ظهرت لهذا الفن العامي المستحدث تتفق مع القصائد المعربة التقليدية في التزام الوزن الواحد، والقافية، والمطلع المصرّع، ولا تختلف عنها في شيء غير اللحن والإعراب واللغة. هذا وتتفق الأزجال مع الموشحات في الأجزاء الأساسية التي تُبنى عليها من مطلع وأسماط وأقفال وأدوار وخرجة، ثم تختلف هي عن الموشحات في البعد عن تعدد فقرات بعض الأجزاء، وفي التقليل من قوافي الفقرات الداخلية، ثم في التزام خرجة واحدة عامية دائماً.

7-أوزان الأزجال:

¹- ابن قزمان أبو بكر: الديوان، تحقيق كورنيطي، المعهد الاسباني للثقافة، مدريد، إسبانيا، 1980، ص 660.

²- المصدر السابق، ص 798.

تتكون الوحدة في الزجل غالبا من قفل ذي أربعة أشطار دون قافية في الشطرين الأول والثاني، فقد نسج ابن قزمان نصه، وجاء بقفل من أربعة أشطار مقفاة الشطر والعجز، ثم جاء بستة أشطار دون قافية في الأشطر الأولى، ثم جاء بقفل من شطرين فقط. يلتقي الزجل مع الموشحات في أنه من فنون الشعر التي استحدثها الأندلسيون، فهو وليد البيئة الأندلسية، ومنها خرج إلى البيئات العربية الأخرى وانتشر فيها

الأدب في عصر المماليك.

تمهيد:

تذكر المصادر التاريخية أن المعتصم العباسي هو أول من قام بجلب المماليك للدولة الإسلامية من بلاد مختلفة، وتقلدوا مناصب عليا في الدولة لما أظهره من حزم ونضج عقلي، ولما يتوفر فيهم من صفات الشجاعة والفروسية، ولاندماجهم في البيت الإسلامي لأن الإسلام لا يفرق بين عربي ولا أعجمي.

يعود وجود المماليك إلى عصر الخليفة العباسي المأمون سنة 200هـ حين اهتدى إليه نوح بن أسد الساماني المملوك التركي طولون مع مجموعة من الرقيق. اتضح بعدها تأثيرهم في الحياة السياسية بعدما تمكن أحمد بن طولون من الوصول إلى سدة الحكم وتأسيس الدولة الطولونية بمصر سنة 254هـ واعتمدوا عليهم في توطيد أركان دولتهم. بلغ عددهم 24 ألف تركي و40 ألف من السود و7 آلاف من الأحرار المرتزقة.

تفيد معظم المصادر أن المماليك في الأصل هم أرقاء، وفدوا إلى مصر والشام عن طريق النخاسين الذين كانوا يأتون بهم من أواسط آسيا، ومن بلاد أوربية أخرى، وبعضهم من أسرى الحروب التي خاض غمارها المسلمون في عدد كبير من المناطق والشعور النائية، ولا يصل الباحثون إلى تحديد جغرافي لهوياتهم وقومياتهم لأن سبل جلبهم واستقدامهم كثيرة: لتقوية الجيش، وبناء الدول والعمران، وخدمة القصور وغير ذلك⁽¹⁾.

أسس محمد بن طغج الإخشيد الدولة الإخشيدية، وكان جيشه من الأتراك المماليك حيث بلغ عددهم أربعمئة وثمانية آلاف (408) زاد الاعتماد على المماليك في آخر العصر

¹ -ياسين الأيوبي: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، جروس بريس، طرابلس، لبنان، ط1، 1995، ص16.

الفاطمي وأصبحت كلمتهم مسموعة عند الخلفاء الفاطميين، وبرز دورهم سياسيا بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي⁽¹⁾.

1-التحول من الحكم الأيوبي إلى المماليك:

بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة 647هـ ومقتل ابنه توران شاه سنة 648هـ على يد المماليك ودخول شجرة الدر⁽²⁾ الحياة السياسية تبدأ فصول التحول من الحكم الأيوبي إلى الحكم المملوكي في مصر⁽³⁾. لبثت شجرة الدر في الحكم 80 يوما إلى أن اعترض على حكمها الخليفة العباسي لأنها امرة، وليستمر حكمها تزوجت عز الدين أيك أحد الأمراء الذي حكم باسم الأيوبيين، ثم استقل بالحكم في 12 محرم 656هـ⁽⁴⁾.

في هذه الظروف التي يحاول المماليك توطيد حكمهم حاصر هولاكو خان بغداد بجيش قوامه 200 ألف مقاتل ودمرها واحرق كل ما فيها وهنا يأتي دور المماليك وقد أعدّ المظفر سيف الدين قطز العدة، وكان سدا منيعا لوقف تدفق التتار إلى باقي الأرض الإسلامية وسجل له التاريخ انتصاره العظيم في موقعة عين جالوت وكان بطلها الحقيقي لحسن تخطيطه ومهارته الحربية، وبعد ذلك تفككت الجيوش التتارية وتتبع الأمير ركن الدين بيبرس جموعهم وقضى عليهم عند بيسان⁽⁵⁾.

تعد موقعة عين جالوت وانتصار قطز سيف الدين على المغول التتار شهادة ميلاد رسمية لدولة المماليك، وبذلك أصبحت الوريث الشرعي لكل من الأيوبيين

¹-نبيل خالد: الأدب العربي عصري المملوكي والعثماني، دار المقداد للطباعة، غزة، فلسطين، 2007، ج1، ص3.

²-شجرة الدر: شجرة الدر هي زوجة السلطان نجم الدين أيوب، وتعتبر أولى سلاطين المماليك بمصر . كانت جارية تركية اشتراها الملك الصالح وحظيت عنده حتى اعتقها وتزوجها .

³-محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1970، ص13.

⁴-نبيل خالد أبو علي: الأدب العربي عصري المملوكي والعثماني، ج1، ص8.

⁵-المرجع نفسه، ج1، ص11.

والعباسيين. أسس المماليك ملكاً استمر زهاء ثلاثة قرون تبوأ مصر فيه الصدارة سياسياً وأدبياً وثقافياً وكانت القاهرة عاصمة لهم. «المملوك هو العبد الذي سبي ولم يملك أبواه»⁽¹⁾ ويطلق هذا الاسم على فئة من الرقيق الأبيض كان الخلفاء والأمراء يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء لاستخدامهم كفرق عسكرية خاصة بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم.

هكذا قامت دولة المماليك بمصر وعاشت طوال ما يقارب الثلاثة قرون يبدأ العصر المملوكي حين تولت شجرة الدر مقاليد الحكم في القاهرة بعد مقتل توران شاه ابن الصالح نجم الدين عام 648هـ 1250م.

-المماليك البحرية: 648-784هـ 136سنة

-المماليك البرجية: 784-923هـ 138سنة⁽²⁾.

2-الحياة الثقافية:

أضحت مصر بعد سقوط بغداد في أيدي المغول عام 656هـ مركزاً من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي، اتجه العلماء إلى العلوم الدينية لارتباطها بالإسلام، وساعد على دعمها إحياء الخلافة العباسية بمصر في عهد (الظاهر بيبرس). أجزل الحكام العطاء للعلماء بكثرة ولالأدباء على قلة بكثرة المؤلفات المهداة إليهم. ومما ساعد على هذا الاتجاه ما مني به التراث على أيدي المغول وغيرهم. وقد شهد هذا العصر عدداً كبيراً من العلماء المبرزين الذين عمروا المكتبة العربية بمؤلفاتهم. ومن أشهر من اهتم بالعلم والأدب والتاريخ، شمس الدين ابن خلكان (ت681هـ)، وأبو الفداء (ت732هـ)، وشهاب الدين

¹-ابن منظور: لسان العرب، مادة(ملك).

²-عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1 1989، ج3، ص602.

النويري(ت732هـ)، وشهاب الدين بن فضل الله العمري (ت749هـ)، والدميري(ت808هـ)، وابن دقماق(ت892هـ)، والفيروز آبادي(ت817هـ)، والقلقشندي (ت821هـ)، والسيوطي (ت911هـ).

اتجه الحكام إلى بناء المدارس للتعزير من شأنهم والإبقاء على ذكراهم. وقد كانت المساجد فيما سبق من العصور موضعاً للعبادة والتلاوة والدراسة أما في هذا العصر فبدأت المدارس تتفصل عن المساجد شيئاً فشيئاً وقد عدد المقريري والسيوطي هذه المدارس ووصفا عمرانها، ومنها المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس سنة 662هـ والمدرسة المنصورية التي بناها (المنصور قلاوون)⁽¹⁾ ومن ثم ظلت المدارس والمساجد هي الجامعة الكبرى للعلم والعلماء يؤمها الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها ومن ثم نشطت حركة التأليف في هذا العصر شعوراً بالدين الذي في أعناقهم لخدمة القرآن وعلومه ولغته⁽²⁾.

لم تكن حركة التأليف الموسوعي حدثاً عابراً في العصر المملوكي. بل هي وليدة جذور عريق ودوافع كبرى أدت إلى هذا الثراء. تمثل ذلك في دافع داخلي: وهو شعور المثقف المملوكي بأنه وريث ثقافة واسعة ضخمة تعاورت عليها الأحداث وأخذت تنتابها المحن، الشيء الذي أيقظ ضمائر العلماء وبث فيهم واجب التأليف والحفاظ على ارث الأمة الثقافي والفكري، ودافع خارجي: تمثل في تلبية رغبات السلاطين والأمراء في تأليف الكتب والدواوين والمصنفات العلمية أما سعياً للشهرة أو تحقيق ثروة أو جاه. وبذلك كثر التصنيف، وانتشرت الموسوعات حتى سُمي العصر بعصر الموسوعات ولعل السبب في

¹-ياسين الأيوبي: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص61.

²-رحمة بنت الحاج أحمد عثمان: عصر الانحطاط بين القبول والرفض، مجلة التجديد، مج21، ع41، 2017، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، ص258.

الاتجاه الموسوعي هذا يرجع إلى طريقة التعليم نفسها حيث كان الطالب يتلقى جميع العلوم دون تخصيص. وأسهب الكتاب في شرح الكتب المختصرة واختصار الكتب المطولة، وقد ضمن هذا التطويل أو الاختصار جانباً كبيراً من العلم الذي ضاع على أيدي التتار بعد سقوط بغداد⁽¹⁾.

وقد نعم العصر بعدد كبير من الشعراء ولا تزال دواوين بعضهم مخطوطة إلى الآن ومنهم، سراج الدين الوراق (ت695هـ) ونصير الدين الحماني (ت714هـ) وعمر بن الورد (ت749هـ) وجمال الدين بن نباتة (ت768هـ) وصفي الدين الحلي (ت750هـ) وغيرهم⁽²⁾. أما الشعر فقد نظم الشعراء في شتى الأغراض الشعرية القديمة من غزل، ومديح، ورثاء، وهجاء، وفخر ووصف، ومجون، وشاع في عصرهم النظم كألفية بن مالك والكافية الشافية وعقود وفي التاريخ على سبيل المثال منظومة صلاح الدين الصفدي.

تشيد المكتبة القومية العربية في عصرنا بفضل كثير من علماء هذه الحقبة من تاريخ المسلمين، لأنهم زودوها بكثير من الأمهات في ميادين المعرفة المختلفة. وإن لم يحمل أكثرها إضافة حقيقية للمعرفة فيكفي أنها اشتملت على كثير من مصادر الثقافة الإسلامية في عصرها الزاهر. ولم يقتصر الاهتمام على بناء المساجد والمدارس بل تعداه إلى المنازل والحمامات والأضرحة وما إلى ذلك.

3- الأدب في العصر المملوكي:

لم يظلم عصر من عصور الأدب العربي كما ظلم عصر المماليك فقد شكك فيه الكثير ووصفوه بعصر الانحطاط وحكموا على نتاجه الأدبي بالضعف، وربما يأتي هذا الحكم نظراً لاختلاف الناس حول حكمه، فقد اختلفوا فيهم حول إخلاصهم للإسلام

¹ -ياسين الأيوبي: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص74.

² -عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، ج3، ص610.

والمسلمين، ومدى معرفتهم للعربية باعتبار أن أصولهم غير عربية، وما مسهم من رق في بداية حياتهم، ثم كيف أصبحوا سادة وحكاما.

شهد العصر المملوكي الكثير من العلماء والأدباء والشعراء والكتاب، ومن أعلامهم نذكر على سبيل الحصر ابن خلكان شمس الدين (ت681هـ) والنويري شهاب الدين (ت732هـ) والعمرى ابن فضل الله (ت749هـ) صاحب: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، والفيروز آبادي (ت817هـ) والقلقشندي أبو العباس (ت821هـ) صاحب: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وحلية الفضل وزينة الكرم في المناظرة بين السيف والقلم، والسيوطي (ت911هـ) والصفدي صلاح الدين (ت664هـ) صاحب: الوافي بالوفيات، وأعيان العصر وأعوان النصر، ونكت الهميان في نكت العميان. ومحي الدين عبد الظاهر (ت692هـ) صاحب: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، والألطف الحقية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية. وابن حجة الحموي (ت830هـ) صاحب: خزانة الأدب وغاية الأرب، وثمرات الأوراق⁽¹⁾.

ومن أعلام الشعر المملوكي نذكر: البوصيري (ت608هـ) وابن نباتة المصري (ت768هـ) وعمر بن الوردي (ت749هـ) وصفي الدين الحلبي (ت750هـ) وأبو الحسن الجزار، وشهاب الدين محمود الحلبي، وشرف الدين الأنصاري، والبهاء زهير، والشاب الظريف، والوراق سراج الدين، والحمامي نصير الدين، وعائشة الباعونية (ت922هـ).

4- نماذج من الشعر المملوكي: يقول صفي الدين الحلبي⁽²⁾ في مطلع مدحة له⁽³⁾:

¹-نبيل خالد: الأدب العربي عصري المملوكي والعثماني، ج1، ص49.

²-صفي الدين الحلبي (ت750هـ): هو صفي الدين أبو الفضل أبو المحاسن عبد العزيز بن علي بن أحمد بن نصر بن سرايا الحلبي الطائي ولد في الحكة قرب الكوفة بالعراق، كان شاعر عصره على طريق الشعراء العباسيين، برع في القصائد الطوال وفي المقطعات، وكان يتكلف في الصناعة تكلفا لافتا.

³-أنس بديوي وحسان الطيبي: روائع الشعر المملوكي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص15.

أُنْجُومُ أَرْضٍ أَمْ نَجُومُ سَمَاءٍ كَشَفْتُ أَشْعَثَهَا دُجَى الظُّلَمَاءِ
أَشْرَقْنَ فِي حُلِّ الظَّلَامِ فَحَدَّقَتْ حَسِداً لِهِنَّ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ
مِنْ كُلِّ هَيْفَاءِ الْمَعَاطِفِ قُوِّمَتْ قَدَا كَقَدِّ الصَّعْدَةِ السَّمَرَاءِ
جِسْمُ كَصَخَرٍ فِي صَلَابَةِ جَرِمِهِ وَجَفُونَهَا فِي الدَّمْعِ كَالْخَنَسَاءِ
تَقُولُ عَائِشَةُ الْبَاعُونِيَّةُ⁽¹⁾ فِي مَدْحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ⁽²⁾:

وَوَلَدَ الْحَبِيبُ فَمَرْحَباً بِوَفَاءِهِ وَبِحَسَنِ طَلْعَتِهِ وَنُورِ بَهَائِهِ
وَتَشَعَّشَعَ النُّورُ الَّذِي سَجَدْتُ لَهُ فِي وَجهِ آدَمَ أَهْلُ أَفْقِ سَمَائِهِ
وَبَدَا جَمَالٌ بِالْجَلَالِ مِمَّنْطَقٌ وَمَتَوَّجٌ بِكَمَالِهِ وَعِلَائِهِ
وَأَتَى خَتَامُ الْمُرْسَلِينَ وَخَيْرُ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى وَمَلَا الْوُجُودَ بِآيِهِ
تَقُولُ أَيْضاً فِي مَدْحِ شَيْخِ الْأَدْبَاءِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعَبَّاسِيِّ الْقَاهِرِيِّ⁽³⁾:

إِمَامٌ حَوَى مِنْ كُلِّ عِلْمٍ لِبَابِهِ فَحَجَّ لِعَالِي بَابِهِ كُلِّ ذِي قَدَرٍ
وَأَصْبَحَ فِي بَحْرِ الْحَقَائِقِ غَائِصاً وَمَسْتَخْرِجاً مَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ الْبَحْرِ
كَرِيمٌ تَجَارِي السُّحُبُ رَاحَتَهُ وَلَا يَرِيدُ بِمَا يَجْزِي سِوَى الْفَوْزِ بِالْأَجْرِ
وَقَالَتْ فِي دِمَشْقٍ⁽⁴⁾:

هِيَ فِي الْأَرْضِ جَنَّةٌ فَتَأْمَلُ كَيْفَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

¹-عائشة الباعونية(922هـ): هي الناسكة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني، منسوبة في الأكثر الى قرية باعون من منطقة عجلون في الأردن، ولدت بالصاحبة بدمشق في بيت عريق في العلم والأدب والورع، فقد كان أبوها وعمها وأخوها من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب، فنهلته من حياضهم، وجنت من رياضهم، حفظت القرآن الكريم وهي في الثامنة من عمرها، ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها كإسماعيل الحوراني ومحي الدين الأرموي، وأبي العباس القسطلاني شارح البخاري، وبعدها عكفت على التدريس والتأليف فانتهج بعلمها وفضلها خلق كثير، ومن آثارها: كتاب الفتح المبين في مدح الأمين، وكتاب فيض الفضل وهو ديوان شعر في المدايح النبوية، والمورد الأهنى في المولد الأسنى وهو كتاب اشتمل على رقائق من النظم والنثر. توفيت في دمشق عام 922هـ. (أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي)

²-أنس بديوي وحسان الطيبي: روائع الشعر المملوكي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص15.

³-نبيل خالد أبو علي: الأدب العربيين عصرين المملوكي والعثماني، ج1، ص62.

⁴-أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص414.

أشرفت من وجوهه الأقمار
خرست عن نطقها الأوتار
وقصور مشيدة وديا

كم سما في ربوعها قصر
وتناغيك بينها صادحات
كلها روضة وماء زلال

من فنون النثر الأندلسي: فن الخطابة.

تمهيد:

يعد النثر الفني من مظاهر الحضارة والرفي العقلي، وأثر من آثار العناية باللغة يقصد فيه إلى جودة العبارة وسلاسة الأسلوب حتى يجد القارئ من اللذة مثلما يجد من يستمع إلى الشعر الجيد، وهو من مظاهر الجمال، وقد اقتصر في القرن الأول من الوجود العربي في الأندلس على ما تقتضيه الأحوال من الخطب والرسائل الإدارية والسياسية لضبط أمور الدولة وإشعال الحماسة في روح الجند؛ لأن ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية لم يكن قد استقر واتسع، ولم يساعد على نمو ملكة الكتابة الفنية في الموضوعات الخيالية، فكانت الكتابة عربية في موضوعاتها وعباراتها الجزلة خالية من الصنعة والتكلف⁽¹⁾.

بدأت النصوص النثرية في الأندلس كما بدأ الشعر بالقليل المروي عن شخصيات مشرقية دخلت الأندلس، واستقرت هناك من الولاة والقادة وذوي المكانة التي تحفظ عنهم الآثار والأخبار. وتعددت فنون النثر في الأندلس تعدد الموضوعات التي دفعت الى ذلك.

1-الخطبة:

الخطبة عند العرب الكلام المنثور المسجوع، والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر، والخطبة مصدر الخطيب، وهي اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب⁽²⁾. وهي من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدتهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام⁽³⁾.

¹-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، ص571.

²-ابن منظور: لسان العرب، مادة(خطب)، مج5 ص98.

³-القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص253.

يبدو أن اقتراب فن الخطابة من فن الرسائل قد جعل التشاكل بينهما بائنا في كثير من المصادر التي تحدثت عن الفنون الكتابية⁽¹⁾ هذا التشاكل يأتي من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، فواصل الخطيب مثل فواصل الرسائل، والفرق بينهما أن الخطبة يشافه بها، بخلاف الرسائل باعتبار الرسالة تأتي مكتوبة.

عندما دخل المسلمون الأندلس فاتحين كانوا بطبيعتهم ميالين إلى الخطابة، ثم إن عصر الولاة كان عصر اضطراب وحروب وصراع بين العصبية المختلفة، فكان ذلك داعيا إلى ازدهار الخطابة في الأندلس في ذلك العصر، فكانت الوسيلة الفعالة في إشعال الحروب وتأييد العصبية القبلية، خاصة عندما تكون الحروب والنزاعات بين العرب العدنانيين والقحطانيين، وكانت الوسيلة الفعالة في الحث على الجهاد، وقتال الأعداء عندما تكون الحروب ضد نصارى الأندلس.

نشطت الخطابة الأندلسية في العصور الأولى، إذ توافرت عوامل ازدهارها، فكانت أداة يستعين بها الخطباء في استنهاض الهمم، وإذكاء روح الجهاد خلال الحروب المتتابعة التي استكمل بها الفتح، وكانت حافلة بانتصارات المسلمين على أعدائهم، فضلا أن ملوك الإسبان الذين فقدوا عروشهم كانوا يسعون الى تفريق كلمة المسلمين كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، مما استوجب أن يقوم الخطباء بالدعوة إلى جمع الكلمة ولم الشمل⁽²⁾.

تميزت الخطابة في تلك الفترة بالسهولة والوضوح والإيجاز والبعد عن التكلف؛ لأن الخطباء من الولاة والأمراء والقادة كانوا عربا مطبوعين على الخطابة والارتجال. ويتكلم

¹-العسكري أبو هلال: الصنائع، ج1، ص136.

²-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص232.

إحسان عبان عن تطورها فيقول: «استمرت الخطابة على ما كانت عليها من أسباب دينية وحربية وسياسية وإدارية، وقد تختلط موضوعاتها مع موضوعات الرسائل الديوانية فمالت إلى الكتابة دون الإلقاء، مثلما كان الحال مع صاحب كتاب سراح الأدب ابن أبي الخصال الذي عارض ابن نباتة في أسلوبه، كما كان في خطبته الحز على الجهاد، وهي مليئة بذكر تفاهات الدنيا والتذكير بالموت»⁽¹⁾.

2-أنواع الخطب الأندلسية:

تنوعت الخطب الأندلسية بسبب كثرة موضوعاتها وقضاياها، فيحسن بالخطيب أن يقف إزاء هذه القضايا والمواقف ويتعامل مع كل ظرف منها، ومن أنواعها:

1.2-الخطب الدينية:

ظلت الخطب الدينية في الأندلس على ما كانت عليه في العصور السابقة، ثم أخذت تميل إلى التكلف في عصر المرابطين بالأندلس،

ومن نماذج الخطب الدينية ما روي عن ابن المشاط(ت352هـ)⁽²⁾ الذي كان خطيباً زمن الناصر بجامع قرطبة ولما أخذ ابن المشاط مكانه من المنبر «ترسل في منطقه واحتفل في افتتاحه وتحميده والصلاة والسلام على رسوله، ثم أخذ في الوعظ على عباد الله وروى في الحديث أنه يختبر يوم القيامة أنعم الناس في الدنيا، وأشد بلاء، فينغمس المنتعم في نهر من أنهار جهنم، ثم يخرج فيقال له: هل رأيت خيراً قط؟ ويؤتى بالمبتلى فيغمس في نهر من أنهار الجنة، ثم يخرج فيقال: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا، ما رأيت بؤساً قط، وحشد أمثال هذا وأطال، وزاد فبكى، وأبكى الناس حتى قام في المسجد

¹-إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر ملوك الطوائف والمرابطين، ص23.

²-ابن المشاط: هو أبو عمر أحمد بن مطرف شيخ فاضل عرف بالزهد والورع والاعتناء بالآثار والسنن، ولى الصلاة بجامع قرطبة، توفي عام 352هـ. ينظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، تحقيق أحمد بكر، ج3، ص329.

شبه المأتم من البكاء والشهيق»⁽¹⁾ والملاحظ أن خطبة ابن المشاط لم تصلنا بالنص رسماً وإنما بالمضمون والإشارة إليها فقط في دفاتر المصادر، وبالرغم من ذلك فإنها أطلعتنا عن أهمية الخطبة الدينية في الأندلس التي تجلت في صفاء الروح، واستشعار عظمة الخالق، وخشية عذابه.

وظهرت الخطب التي تتضمن التورية بأسماء سور القرآن مثل خطبة القاضي عياض (ت544هـ) التي جاء فيها: «الحمد لله افتتح بالحمد كلامه، وبين في سورة البقرة أحكامه، ومدّ في آل عمران والنساء مائدة الانعام ليتم إنعامه...أيقنوا أنه الحي القيوم نزل به الروح الأمين على زين من وافى القيامة»⁽²⁾.

2.2-الخطب الجهادية:

هي خطب تحث على الجهاد رافقت الحياة الأدبية الأندلسية منذ الفتح حتى السقوط، وازدهرت خصوصاً في فترة ملوك الطوائف الذين أخذوا يتناحرون فيما بينهم ويستعين بعضهم على بعضهم بالأعداء، ثم أخذت مدن الأندلس تسقط تباعاً في أيدي الأسبان. شرع الخطباء يحظون على الجهاد.

ومن نماذج خطب الأندلس الجهادية نذكر خطبة الوزير لسان الدين بن الخطيب التي يحث فيها المسلمين على الجهاد ومساندة إخوانهم في الأندلس وقد داهمهم العدو يقول فيها: «أيها الناس رحمكم الله تعالى إخوانكم المسلمين بالأندلس قد دهم العدو- قصمه الله تعالى-ساحتهم ورام الفكر-خذه الله تعالى-استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم...الجهاد وسبيل الرشd قد تبين، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين، الله الله في الإسلام، الله الله في أمة محمد-صلى الله عليه وسلم-اللهم أفرغ علينا صبراً

¹-القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج3، ص 432.

²-عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص294.

وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً»⁽¹⁾ وكل الخطب الجهادية تحرض على القتال وتحفز على الثبات والإقدام لنصرة المسلمين.

3.2- الخطب السياسية:

هي خطب تقال في شأن من شؤون الدولة العامة والخاصة في الأمن والسلم والحرب، ومن أمثلتها: الخطب التي يلقيها أصحاب السلطة من حكام وأمراء في تسيير وتوجيه أمور الدولة والرعية.

لكن عندما استقرت الأمور ومال الناس إلى الدعة ضعفت الخطابة الأندلسية، وتفوق الشعر والنثر لفني عليها، وإن كانت الخطابة الدينية قد ازدهرت بفضل بعض العلماء الذين كانوا يجيدون الخطابة كالقاضي منذر بن سعيد البلوطي التي تعد خطبته من الأمثلة المشهورة في الخطب السياسية ومما جاء فيها: «فبعد أن أثنى على الله وصلى على النبي قال: أما بعد فإن لكل حادثة مقاما، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إلي بأسماعكم، وألفتوا إلي بأفئدتكم، معاشر الملأ إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه وتقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمة موسى-صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين- أن يذكر قومه بنعم الله عز وجلّ عندهم... وأنا أذكركم بنعم الله عليكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي أمنت سربكم، ورفعت خوفكم، وكنتم قليلا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم... أناشدكم الله يا

¹-المرجع نفسه، ص 17.

معشر المأ: ألم تكن الدماء مسفوكة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها؟ وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها؟»⁽¹⁾.

الخطبة قيلت في مجلس الخليفة الناصر في يوم دخل فيه ملك الروم صاحب القسطنطينية للاحتفال بقصر قرطبة، جاءت الخطبة حسنة الافتتاح وسريعة الدخول إلى المراد والهدف، حملت الوقار والهيبة التي أعطاها كلام البلوطي لضيف الخليفة الناصر ملك الروم، ثم اختار موضوع شكر النعم، والإشادة بخليفة المسلمين وكشف أعماله أمام ملك الروم لتبقى دار الخلافة الإسلامية عالية الشأن مهيبة في نظر الروم. وينهي خطبته بأبيات شعرية من باب تعدد الأساليب والفنون في تثبيت الفكرة وموضوع الخطبة.

وعندما عادت الأندلس إلى عصر الاضطراب والحروب في عهد ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين كانت الملكة والسليقة العربية قد ضعفت، فلم تزدهر الخطابة من جديد مع وجود دواعي الازدهار، بل دخلها كثير من الصنعة اللفظية، وامتألت بالسجع المتكلف فضعت، ولم يعد لها تأثير يذكر. وأشهر خطباء الأندلس عموماً: طارق بن زياد فاتح الأندلس، والأمير عبد الرحمن الداخل مؤسس الحكم الأموي في الأندلس، ومنذر بن سعيد البلوطي، والقاضي عياض، ولسان الدين بن الخطيب.

3- من خصائص الخطبة الأندلسية:

- سهولة التراكيب وبعيدة عن الصنعة والتكلف، قليلة الاستعارة.
- واضحة المعاني لأنها بعيدة عن الاغراق الفلسفي والخيال الشعري.
- موضوعاتها مباشرة كالحض على الجهاد والصبر على منازل الخطوب.
- كثرة الاقتباس .

¹- ابن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس، ق2، ص241.

فن الترسل في الأندلس.

تمهيد:

مر الترسل العربي في الأندلس بعدة مراحل ، وسار فيها على الطريق الذي سار فيه الترسل العربي عموما ، وكانت مرحلته الاولى أشبه بخطوات الترسل في صدر الاسلام، وفي عصر الامويين بالأندلس اتسمت الرسالة بالإيجاز والطبع، وما إن جاء عصر ملوك الطوائف حتى راح الكتاب يترسمون خطى البلغاء في عهد بني العباس، وينحرفون بالرسالة عن كونها قناة الفكر والعاطفة الى جعلها مركبا لإظهار المهارة في ضروب الصناعة والزخرفة والتنميق، وبعد ذلك اخذ الترسل ينحط شيئا فشيئا حتى أصبح في آخر المطاف لا يهدف الا الى الصناعة فأصبحت غاية بعد ان كانت وسيلة من وسائل تقوية التركيب والفكر.

والترسل الأندلسي هو وليد الترسل العربي والاسلامي غالبا ما تمتاز بالوصف ومحاكاة الطبيعة وصفا وتصويرا متأثرة بالنص الديني، وبالأمثال والحكم وتوظيف اساليب الترغيب والترهيب بالإضافة الى الوشي بالمحسنات البديعية والصور اللفظية "فالترسل كان فن الكتاب الا انه في بدء أمره ذا أغراض محدودة ومعاني جلية واسلوب موجز خال من الزخرفة ، ثم أصبح فنا مستقلا وكثرت اغراضه وتنوعت أساليبه"⁽¹⁾.

1-الرسالة الفنية المصطلح والمفهوم:

يأتي لفظ الرسالة من المادة اللغوية (رسل) التي تدل على معان حسية كثيرة في المعاجم اللغوية العربية وهي القطيع من كل شيء، أو القطيع من الابل والغنم، والترسل من الرسل في الأمور، والمنطق كالتمهل والتوقر والتثبت،وقد تطور مفهوم لفظ الرسالة من الاستعمال الحسي الى الاستعمال المعنوي، وقد ذكر صاحب اللسان أن الارسل يعني

¹-حننا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، ص316.

التوجيه، والاسم الرسالة والرسالة⁽¹⁾. ثم تطور هذا المفهوم للفظ رسالة ليدل على كلام يرسل به من بعيد⁽²⁾.

وكان ادباء الاندلس يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الاغراض، ويوجهه الى شخص آخر، ويشمل ذلك الجواب والخطاب. كما كانوا ايضا يطلقونها أحيانا على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موجه الى صديق أو غيره في أي موضوع، ويبدو ذلك واضحا في عدد من الاخبار والنصوص الادبية التي انتهت اليها، ومن ذلك ما جاء في مصنف الذخيرة لابن بسام أن أبا مروان الحجازي كتب الى المأمون ابن ذي النون "رسالة السجن والمسجون والحزن والمحزون، وودعها في قصائد مطولات، ومقطوعات، وأبيات"⁽³⁾.

والرسالة لون من ألوان النثر الفني الجميل وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيارا، ولا يكاد يختلف مفهوم الرسالة الفنية عن الاندلسيين عن مفهومها عند المشاركة، لان الادب في عرفهم ينقسم الى أصليين أساسيين: منظوم ومنثور، والمنثور منه الخطب والرسائل، وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلن الشعر.

وللرسالة الفنية بناء خاص، وشكل فني معروف، وسمات معينة تعد من الأركان التي تبنى عليها الرسالة الفنية، باعتبارها قطعة نثرية واحدة تتجزأ الى ثلاثة اجزاء مختلفة وهي: البداية أو الصدر، والمتن والنهاية أو الختام، ولكل عنصر من هذه العناصر طابعه الخاص، في البداية غالبا ما يخاطب فيه الكاتب فيه من أرسلت اليه الرسالة، وفي المتن يتناول يتناول الكاتب الموضوع الذي انشئت من اجله الرسالة، وفي النهاية يدعو الكاتب

¹-ابن منظور: لسان العرب، مادة(رسل).

²-الكاتب أبو الحسين اسحاق: البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحارثي، مطبعة العاني، بغداد، العراق، 1967، ص191.

³-ابن بسام: الذخيرة، ق3، مج1، ص332.

بالسلام لمن كتب اليه الرسالة، وهناك اتصال وثيق بين هذه العناصر التي تكون الشكل الفني المميز للرسالة بين اشكال النثر الفني الاخرى.

2-أقسام الرسالة الفنية:

تقتصر الرسالة وتطول دون أن يؤثر ذلك على بنائها الفني، وهي بذلك ثلاثة أقسام:

1-رسائل طوال تجري مجرى الكتب المصنفة، تتيح لمنشئها أن يظهر مهارته الفنية وثروته الفكرية والثقافية، فيسرف في عرض المسائل والقضايا التي يريد أن يوضحها، ومنها: رسالة طوق الحمامة لابن حزم، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد. 2-رسائل دون الطوال كرسالة ابن غرسية في الشعوبية، ورسالتني ابن زيدون الجدية والهزلية...

3-رسائل قصار نحو ما تجري به العادة في المراسلات والمكاتبات.

تتطلب الرسائل الفنية من الكاتب استخدام طاقات تعبيرية وفنية تتعلق بالدقة في اختيار الالفاظ، وحسن تنميقها، وحلاوة تركيب الجمل، وصياغة العبارات في تأليف المعاني، والموازنة بينها وبين الكلمات التي تعبر عنها، الى جانب ذلك توفير الامتاع الفني في نفس القارئ⁽¹⁾.

3-أنواع الرسائل الفنية:

1.3-الرسائل الأدبية:

هي رسائل كانت تعنى بالكتابة في موضوع محدد، ويدخل هذا النوع من الرسائل في باب التأليف، وليس من باب الترسل، كرسالة الغفران لابي العلاء المعري، والرسالة الهزلية لابن زيدونالتي كتبها على لسان ولادة بنت المستكفي الى منافسه ابن عبدوس في الحب والسياسة، ورسائل ابن شهيد الأندلسي التي تخاطب الأمراء والملوك والأدباء، ومن

¹-ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج3، ص161.

أشهرها رسالة التوابع والزوابع التي سميت بشجرة الفكاهة خاطب فيها صديقه أبا بكر بن حزم حينما تساءل معجبا ببلاغته⁽¹⁾ .

كانت الرسائل الأدبية في عصر الولاة وبداية الحكم الأموي محددة الأغراض، لا تتعدى القدر الذي تدعو إليه ضروريات الحياة كالمكاتبات الرسمية والعهود وتسمى الرسائل السلطانية أو الديوانية أو الإنشائية والرسائل الإخوانية، والرسائل الأدبية الخالصة، وتسمى كل هذه الأنواع بالرسائل الأدبية.

وكان أسلوبها يتسم بالوضوح والبعد عن التكلف والصناعة اللفظية، ثم هبت رياح الصناعة اللفظية والتكلف من الشرق على الأندلس، فوجد من كتاب الأندلس من قلد ابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل وغيرهم. ويمكننا أن نقسم الرسائل إلى:

2.3-الرسائل الديوانية:

هي الرسائل الرسمية التي تصدر من ديوان الخليفة أو الوالي إلى ولاية الأقاليم أو قادة الجيوش أو إلى الأعداء الخارجين على السلطة، وتسمى الرسائل السلطانية. لأنها صادرة من السلطان أو الحاكم، وتسمى كذلك بالديوانية لأنها صادرة من ديوان الحكم وتسمى بالإنشائية لصدورها عن دار الإنشاء الخاص بالحاكم، وباختصار هي رسالة موجهة من الحاكم إلى الرعية أو إلى حاكم آخر، ويكتبها بالطبع وزير من الكتاب، وهي أشبه ما تكون اليوم بالمراسيم التي تصدر اليوم من دور الحكم. وكان الخلفاء يختارون كبار الأدباء لكتابتها، ولأنها تتعلق بالأمور الرسمية، فإن الخيال والإبداع الأدبي فيها محدود. ومن كتاب الرسائل السلطانية: ابن زيدون، وابن برد الأصغر، ولسان الدين ابن الخطيب.

3.3-الرسائل الإخوانية:

¹ -يوسف عيد: دفاتر أندلسية، ص539.

هي رسائل تصور عواطف الكتاب وانفعالاتهم ومشاعرهم الخاصة في المدح والالاء والاعتذار والاستعطاف وغيرها من الامور، وأهم ما يميز هذا النوع من الرسائل هو قلة أثرها ووصولها إلينا مقارنة بالرسائل الديوانية، وموضوعاتها كثيرة حسب ما جاء في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، وما أورده ابن بسام في ذخيرته كالتعازي، والهزل والتهنئة، والاستعطاف والعتاب⁽¹⁾.

وهي الرسائل التي تدور بين الإخوان والأصدقاء للتهنئة أو التعزية أو الشوق أو الشكر أو العتاب وهي ميدان فسيح للإبداع والتأنق، خصوصا إذا كانت بين أدبيين يريد كل واحد منهما أن يظهر براعته للآخر، وأن يرتفع بمستوى رسالته إلى آفاق سامية من الجمال والإبداع.

ولأدباء الأندلس رسائل إخوانية كثيرة، أجادوا فيها وأبدعوا، منها القصير وهو الغالب، ومنها الطويل الذي يستوعب عدة صفحات .

ومن أشهر كتاب هذا النوع من الرسائل: ابن زيدون، وابن برد الأصغر، والفتح ابن خاقان، ولسان الدين بن الخطيب .

4-عناصر الرسالة الأدبية:

عرف البناء الهيكلي للرسالة تطورا ملفتا في تاريخها الادبي ابتداء من رسالة عبد الحميد الكاتب الى موسوعة ابي العباس القلقشندي، ويأتي هذا التطور لاهتمام الكتاب بالرسالة وبنائها وبعناصرها التي تميزها عن غيرها من الالوان النثرية، والمتصفح كتاب صبح الاعشى يجد هذا الاعتناء بهيكله الرسالة وعناصرها التي تتمثل في الابتداء والمقدمة والعرض والخاتمة.

¹-ابن بسام: الذخيرة في محاسن الجزيرة، مج2، ق3، ص191.

أ-البسملة: ترد عادة في البداية ولا يتقدمها أي كلام آخر، وتعد أول عناصر الرسالة، وقد أشار النقاد الى ضرورة افراد البسملة في سطر وحدها تبجيلا لاسم الله تعالى، واعظاما وتوقيرا له⁽¹⁾.

ب-العنوان: عنصر مهم في بناء الرسالة عن طريقه تبينة مقدمات الرسائل، ويذكر فيه اسم المرسل والمرسل اليه، يرى أبو هلال العسكري أن «أول من أول من كتب هذه العبارة من فلان الى فلان هو قس بن ساعدة الإيادي»⁽²⁾

ج-الحمدلة: تفتح الرسالة في بدايتها بالبسملة، كما يجب أن تفتح كذلك بالحمدلة، فيحمد الله عز وجل على نعمه الكثيرة، وآلائه العظيمة التي توجب الحمد والشكر، والاستفتاح بالحمد هو ثقافة اسلامية بحتة وهدى نبوي، موافق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجزم»⁽³⁾

د-الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: اهتم الكتاب بذكر الصلاة على النبي في رسائلهم، وعادة ما تكون الصلاة والسلام على الرسول تكون بعد التحميد في صدور المكاتبات.

هـ-التخلص: نعني به الانتقال من مقدمة الرسالة الى الموضوع، أو الغرض المطلوب، وقد سار الكتاب منذ العصر الاسلامي على استعمال: (أما بعد) للانتقال الى موضوع الرسالة.

و-العرض أو الموضوع: يعد من أهم أجزاء الرسالة وهو مضمونها، يبسط الكاتب فيه آراءه وأفكاره، ويسرد موضوعه الذي يناسب الرسالة، ولذا يحرص الكاتب على التمهيد له،

¹-القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص207.

²-المصدر نفسه، ج6، ص327.

³-الحافظ ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تحقيق محمد عبد الباقي، دار الاحياء، بيروت، لبنان، دت، ص610.

وحسن عرضه وتقديمه، وأغراض الرسالة تختلف من نوع لآخر، ففي الرسائل الاخوانية الغرض يكون المدح أو الشكوى أو العتاب أو الرثاء أو التعزية⁽¹⁾

ز-الخاتمة: هي اخر عنصر في الرسالة، وقد اعتنى الكتاب في رسائلهم بحسن الخاتمة، لأنها آخر ما يبقى في نفس السامع، و«خواتيم الرسائل هي آخر شيء فيها ويشترط في الاختتام ما يشترط في الابتداء من جودة وحسن لأنها آخر ما يتبقى في الاسماع»⁽²⁾. وقد نبه النقاد على ضرورة ارتباط الخاتمة بالموضوع، وقد تتضمن الخاتمة.

¹-فايز القيسي: أدب الرسائل في الاندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر، ط1، 1989، ص279.

²-محمد توات: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص381.

رسالة التّوابع والزّوابع لابن شهيد.

تمهيد:

رسالة التّوابع والزّوابع رسالة نثرية خاطب فيها ابن شهيد صديقه أبا بكر بن حزم وعرض فيها أروع نتاجه الشعري والنثري، وقرنه إلى نتاج كبار أدباء المشرق مبيناً تفردّه وتفوّقه، وعرض بخصومه وحسّاده من معاصريه الأندلسيين والقرطبيين. والتّوابع والزّوابع قصّة رحلة خياليّة إلى عالم الجنّ قام بها ابن شهيد مع تابع اسمه زهير بن ثُمير ولقي شياطين المشرق وكتّابهم، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبيّة، ومناقشات لغوية تجلّت فيها آراء ابن شهيد النقدية، وانتزع اعترافهم بتفوّقه وجودة أدبه، فضلاً عن الفكاهات والطّرف وروح الدّعابة التي سرت في هذه الرسالة.

1-رسالة التّوابع والزّوابع.:

تحمل الرسالة عنوان التّوابع والزّوابع، والتّوابع جمع تابع وهو الجني الذي يتبع الإنسان ويحبه ويرافقه، أما الزّوابع فهي جمع زوبعة وهي شيطان مارد أو رئيس من الجن، ورسالة التّوابع والزّوابع من أشهر مؤلفات ابن شهيد⁽¹⁾ وذلك لضمها أرائه الأدبية

¹-ابن شهيد: هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأشجعي الأندلسي القرطبي، ابن شهيد هو وزيرٌ وشاعرٌ وأديبٌ أندلسي ، وُلد سنة 382هـ بقرطبة، في خلافة هشام بن الحكم، ونشأ في كنف أسرة من أصحاب المناصب المرموقة في الدولة الأموية بالأندلس، فجده عيسى بن شهيد كان حاجباً للأمير عبد الرحمن بن الحكم، وجده أحمد بن عبد الملك كان من قادة ووزراء الخليفة الناصر لدين الله، وهو أول من سُمي بذي الوزارتين في الأندلس، وكان أبوه عبد الملك وزيراً في عهد الخليفة هشام المؤيد بالله، وكان من ندماء الحاجب المنصور.

فنشأ مكلّلاً بهالة من الزّجاجة الاجتماعية، ومُتمرّغاً في الثّرف والنعيم، واستعمله عبد الرحمن المستظهر الأموي وزيراً فترة حكمه، وقد نبغ في اللغة والشعر والأدب، واعتبره البعض أرسخ أهل الأندلس في الأدب، كما اشتهر بالجود والكرم، وحسن الجوار، ولما ضاقت به الأحوال كان يتكسّب بشعره في المدح.

والنقدية، واصطبأها بالطابع القصصي، وبها الكثير من الخيال، فتدخل ضمن نواذر التراث القصصي العربي، وتتمتع بأسلوب فريد قلما نجده في غيرها من الرسائل الأدبية، فهي تعرض القضايا الأدبية والنقدية في إطار قصصي وذلك عبر مناظرات أدبية بين كل من ابن شهيد وتوابع بعض الشعراء والكتاب ونقاد الجن⁽¹⁾.

تخيل المؤلف في هذه الرسالة أنه قام برحلة إلى عالم الجن، وهناك التقى بشياطين الشعراء والكتاب، ووقعت بينهم مناظرات أدبية تفوق فيها ابن شهيد على الجميع وأرضى غروره، وذلك في إطار قصصي، وفي رسالته التقى ابن شهيد بتوابع عدد من الشعراء والأدباء منهم امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وأبي تمام، والبحثري، وأبي نواس، والمنتبي، والجاحظ وغيرهم⁽²⁾.

من ناحية الهيكلية تتضمن رسالة ابن الشهيد مدخل وأربع فصول: فصل في توابع الشعراء، وفصل في توابع الكتاب، وفصل في نقاد الجن، وفصل في حيوان الجن.

2- القضايا النقدية في الرسالة:

من القضايا التي عالجها ابن شهيد في نقده الخروج على ذلك النظام المتبع في القصيدة العربية منذ العصر الجاهلي، وهو ما يسمى بالمقدمة الطللية، وإنكاره الشديد على الشعراء الذين يولون هذه المقدمة اهتماما ينسبهم الغرض الأساسي الذي من أجله أنشئت

يقول فيه شوقي ضيف: كان ابن شهيد كاتباً وأديباً كبيراً، بقدر ما كان شاعراً مجيداً، وقد شهد له النقاد بتميزه في فن النثر أكثر من الشعر، وأثنوا على تفوقه فيه. ويقول المؤرخ حازم عبد الله خضر عن ابن شهيد الأندلسي: كان له باعاً طويلاً في الجانب الأدبي، وكانت له بصمات لا يستهان بها، كانت شاهدة على مدى ثقافته الواسعة، وسعة إطلاعه، وقد استعرض قدراته وثقافته في تطرقه لشتى الموضوعات، ونحسب أن توفيقه في فن النثر تجاوز ما حاله من توفيق في فن الشعر. (هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 367).

¹- أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص 377.

²- المرجع نفسه، ص 378.

القصيدة فلا يشيرون إليه إلا إشارة بسيطة. ومن القضايا التي أثارها ابن شهيد السرقات الشعرية، وهي من أقدم القضايا التي تنبّه إليها النقاد، وأكثرها القول فيها، بل إنها من المسائل التي شغلتهم، والسرقات الشعرية تمتد جذورها إلى العصر الجاهلي لكن على نطاق محدود.

يتلخص رأيه في قوله إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه وأرق حاشيته، فاضرب عنه جملة، وإن لم يكن بد، ففي غير العروض التي تقدم إليها ذلك المحسن لتنشط طبيعتك. هذا الرأي تفرد به ابن شهيد بين النقاد يدل على ذكائه ولباقة لأن تغيير العروض يغير موسيقى البيت، فيتحقق نوع من الاختلاف، وهذا من أنواع الحيلة على الرغم من ذلك أن الناقد المثقف الملم بالأشعار لا تخفى عليه مثل هذه الأشياء فهو يستطيع أن يخرج البيت المسروق مهما حاول قائله أن يغير ويبدل فيه.

3-المضمون الفني في الرسالة:

التوابع والزوابع رسالة أدبية، كتبها أبو عامر أحمد ابن عبد الملك بن شهيد القرطبي الأندلسي، وهي قصة خيالية تحكي عن رحلة في عالم الجن. يلتقي البطل خلالها بشياطين الكتاب، فيحاورهم ويحاورونه. ويخلص من ذلك إلى سمات نقدية وأدبية محدودة. تنقسم الرسالة إلى مجالس أربعة هي:

أ-المجلس الأول: ابتداء من العصر الجاهلي والأموي والعباسي. فيحاور عددًا من توابع الفحول كامرئ القيس، وطرفة، وأبي تمام، والبحثري، وأبي نواس، والمتنبي ويتجاوز عصر صدر الإسلام إذ لا يرى فحولاً بين شعرائه. وهو يوفق بين البعد الجسمي والفكري، ليستخرج نفسية الشاعر وذاته، فيرسم له صورة قلمية في ضوء ما ورد من أخباره. وهو أبداً ينتزع شهادات الإجازة بشاعريته من هؤلاء الفحول، فهو لا ينشدهم، إلا في تلك الأغراض التي اشتهروا بها، وذاع صيتهم فيها.

ب-المجلس الثاني: وهو مجلس الكتاب، يقدم ابن شهيد رؤية جديدة؛ وهي أن للكتاب شياطين كما للشعراء شياطين. ويعتمد النهج التاريخي هنا؛ حيث يبدأ بالجاحظ شيخ الأدباء، ويحاور عبد الحميد الكاتب وبيدع الزمان الهمذاني، ويساجلهم في قضايا تتصل بالسجع والمزوجة، وتتصل بقضايا الأساليب والبيان. ويخلص إلى انتزاع شهادات بإجازتهم له وتفوقه عليهم.

ج-المجلس الثالث: يبين من خلاله طائفة من القضايا النقدية التي كانت تشغل ذوق العصر ومن أهمها قضية السرقات، فيوضح رؤيته النقدية المتميزة في هذا المقام ويستشهد عليها.

د-المجلس الأخير: ينتقل ابن شهيد وتابعه إلى أرض بها حيوانات من الجن، ويكشف هذا المجلس عن حس ابن شهيد الساخر؛ حيث يحكم في قطعتين شعريتين غزليتين لبغل محب وحمار عاشق. وتنتهي الرسالة بحوار ابن شهيد مع الأوزة التي رأى أنها تابعة لبعض شيوخ اللغة، وأرادت أن تناظره في النحو والغريب، فأعرض عنها وزجرها لسخفها وحمافتها.

تُعد رسالة التوابع والزوابع مَعْرِضًا، يقدم ابن شهيد من خلاله صورة للأدب والأدباء في عصره؛ كما يظهر براعته بانتقادهم والسخرية منهم؛ فيضع نفسه في المكانة الأدبية التي لم ينلها بين معاصريه. فالرسالة بذلك رد عملي ينافح به ابن شهيد عن عبقريته ونبوغته، حين انتقص خصومه وحساده من مكانته. فهدف الرسالة إرضاء ذاته المتفوقة، ثم إظهار براعته وبلاغته بالنيل من الخصوم والأعداء؛ لذلك كانت السخرية المريرة الشرسة أداة من أقوى أدواته. ثم تضمنت الرسالة آراءه النقدية في الشعر والنثر، التي بسببها اكتسب عداوة معاصريه.

4-أسلوب ابن شهيد:

يبدو خياله قويا خلاقا تحفّه طائفة من الصور الدقيقة الوصف مع عناية بتصوير الأخلاق والأشكال في إطار من التحليل النفسي. وقد اهتم بالأوصاف الدقيقة أكثر من الصور المتحركة والمسموعة. كما كان عنصر التشويق أداة من أدوات أسلوبه، بجانب الاستطراد الذي يقتضيه السياق القصصي، فضلاً عن ظاهرتي الحوار الداخلي والمباشر. وتزخر الرسالة بروح الفكاهة والإضحاك بما يضع ابن شهيد في مكانة بارزة في دنيا السخرية والطرافة.

ومن المرجح أن ابن شهيد استوحى موضوع الرسالة متأثراً بقصة الإسراء والمعراج، ويماثل التوابع والزوابع في المشرق رسالة الغفران لأبي العلاء المعري⁽¹⁾. فنشأ مُكَلَّلًا بهالة من الوجاهة الاجتماعية، ومُتمرِّعًا في الترفّ والنعيم، واستعمله عبد الرحمن المستنظر الأموي وزيراً فترة حكمه، وقد نبغ في اللغة والشعر والأدب، واعتبره البعض أرسخ أهل الأندلس في الأدب. ولغة ابن شهيد سلسلة طيبة بعيدة عن التكلف والصنعة، تزوج تارة، وتسجع أخرى وتسترسل ثالثة، ففيها لكل مقام مقال. ولئن اتفقت الرسالتان: التوابع والغفران في عرضهما للمشكلات الأدبية في قالب قصصي، وتوجيه النقد للمعاصرين، فقد اختلفتا في الإعراب عن مؤلفيهما؛ حيث شَفَّت التوابع عن أديب فنان على حين شَفَّت الغفران عن أديب عالم⁽²⁾.

5-جماليّات الأسلوب:

نسج ابن شهيد قصته جاعلا بدايتها لقاء مع زهير بن نمير فيه تمت إعادة ذكريات من التوابع والزوابع، هذه البداية هي بمنزلة العقدة الرئيسية في القصة التي انطلقت من خلالها الأحداث، وعلى منوال هذه البداية نسج ابن شهيد قصته لرغبة في نفسه، هي

¹-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، 1992.

²-أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص382.

شوقه وتوقه للقاء تابع امرئ القيس، هذا الشوق يوحى باللون الأحمر المعبر عن تعطشه للقاء ذلك التابع كي يحظى بإجازة منه.

وابن شهيد يمثل شخصية البطل في هذه القصة، كما يمثلها في أغلب قصصه، فهو البطل والزّاوي، بعكس ما هي عليه الحال في الملاحم، إذ تقوم أبطال القصة بالقول والفعل، ويبقى الزّاوي خلف الستار الذاتي يراقب الأحداث وتطوّراتها.

وتأتي شخصية زهير لتكون ظلاً لشخصية ابن شهيد إذ ترافقه أينما توجه، وحيثما حلّ وتسهم في إغناء مقدّمة القصة من خلال الحوار الذي دار بينهما، والذي دلّت عليه المفردة تذاكرتُ التي توحى للوهلة الأولى بتداعي شريط من الذكريات، وقد حدّدت ماهيته ضمن السياق عن طريق التصريح بأنّ التداعي مرتبط بالتراث القديم.

وفي الحوار يبدو سلوك ابن شهيد الحضاري في تساؤله، وهذا التساؤل يوحى بتواضعه والتّواضع يرتبط بوقار العلماء وجلالهم، وهذا السلوك هادئ لوقار صاحبه، هذا الوقار اكتسبته نفسيته من أدبي النفس والدّرس اللذين نهلهما من منابع الثقافة، ومجالس الخلافة، فقد نشأ نشأة مترفة في زمن المنصور، وكان بعد ذلك على صلة بخليفتين هما يحيى بن حمّود والمستظهر.

ولا عجب أن يظهر سلوكه في ألفاظه لأنّ الإنسان ابن البيئة، وقد كان للبيئة دور بارز في تكوين شخصيته، وصقل مواهبه. وهذوء النفس يرتبط بسياق القصة من خلال التركيب اللغوي الذي تتألف فيه العبارات محافظة على الوحدة العضوية عن طريق العبارة الدّالة على السلوك تارة، ومن خلال اللفظة المنسجمة مع التعبير والملائمة للجو تارة أخرى

فن المناظرة في الأدب الأندلسي.

تمهيد:

المناظرات فن أدبي نثري عرف بالأندلس بالمناظرات الخيالية أعطت مفهوما جديدا للنثر العربي عموما، أجاده الأندلسيون، وفاضلوا بين الأشياء الواقعية، كالمفاضلة بين المشرق والأندلس أو بين مدن الأندلس كقرطبة وطليلة مثلا، والخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم، وبين أنواع الورود أو الفواكه والمناظرات الأدبية ميدان فسيح للإبداع، أكثر الأندلسيون من عقد المناظرات والمقارنات بين الأندلس وبلدان المشرق دفاعا عن بلدهم ضد من اتهم الأندلس بالتقليد والتبعية للمشرق، كما فعل الإمام ابن حزم في كتابه: فضائل الأندلس.

ومن المناظرات ما كان يقوم بين بلدان الأندلس نفسها، كما في رسالة الأديب أبي بحر بن إدريس إلى الأمير عبد الله بن يوسف الموحي، والتي بناها على مناظرة بين مدن الأندلس، حيث يحكي مفاخر كل مدينة أندلسية، وما تمتاز به على المدن الأخرى، وأنها أولى بإقامة الأمير فيها من غيرها ومن المناظرات الخيالية المناظرة التي عقدها ابن برد الأصغر بين السيف والقلم.

1- المناظرة:

إذا بحثنا في المعاجم اللغوية العربية عن جذور كلمة مناظرة، نجد النون والطاء والراء أصل صحيح يرجع إلى معنى واحد وهو تأمل الشيء ومعانيه⁽¹⁾. والمناظرة على وزن المفاعلة، والمفاعلة إثارة الفعل أو تحريك الفعل بين اثنين⁽²⁾ ويقال: ناظرت فلانا إذا صرت نظيرا له في المخاطبة وناظره وباراه في المحاجة⁽³⁾.

وأما من الناحية الاصطلاحية فالمناظرة لها تعريفات متعددة وحدود متباينة، هناك من يقرنها بالحوار مثلما الأمر عند محمد الشنقيطي الذي يرى: بأنها محاوره بين

¹- ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 1979، ج5، ص444.

²- ابن منظور: لسان العرب، مادة (نظر)، ص606.

³- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج2، مادة نظر، ص932.

شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول الآخر من أجل الوصول إلى الحقيقة والصواب⁽¹⁾. وعند محمد غنيمي: هي قالب فني عام، وهي من الأجناس الأدبية التي تدق فيصعب تحديد معالمها لتمييز مواطن التلاقي التاريخية فيها بين الآداب، ويرى أن مواطن الاتفاق بين فن الحوار، وفن المناظرة في كونهما ضربا من الخطابة بين شخصين أو أكثر، إلا أن الاختلاف بينهما يكمن في أن المناظرة يقصد بها شرح وجهتي نظر مختلفتين، أو عرض صورتين متضادتين وذلك باستخدام الحجة والبرهان حتى يتم نقض حجة الخصم وإبطالها⁽²⁾.

وإجمالا هي حوار بين فريقين أو شيئين حول موضوع لكل منهما وجهة نظر مخالفة وكل فريق يحاول إثبات وجهة نظره بالحجة والبراهين للوصول إلى الإقناع.

2- فن المناظرة في الأدب العربي:

يعود فن المناظرة في الأدب العربي إلى العصر الإسلامي وما بعده، فقد أشير إليها بشكل غير مباشر في القرآن الكريم، وتم تكليف المسلمين بهذا الأسلوب في مواضع مختلفة من سور القرآن الكريم على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل، 125) ويمكن أن نعد ما جاء من إبداع شعري عند المثلث الأموي (جرير، الأخطل، الفرزدق) في فن النقائض نوعا من المناظرة الأدبية الشعرية، وفي العصر العباسي وجد هذا النوع عند أشهر الكتاب والأدباء

¹- الشنقيطي محمد الأمين: آداب البحث والمناظرة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، دط، دت، ص3.

²- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2005، ص206.

فقد ترك الجاحظ(255هـ) الكثير من الآثار المنظومة والمنثورة منها: العرجان والبرصان، مفاخرة الجواري والغلمان، فخر السودان والبيضان، الأسد والذئب⁽¹⁾.

وقد تطور هذا الفن وانتشر في العهد المملوكي على غير ما كان معروفا في الأدب العربي القديم فاهتم الكثير من أدباء هذا العصر بالمناظرة، نذكر منهم: صفى الدين الحلي، والشاب الظريف، وعمر بن الوردي، والقلقشندي، وابن نُباتة المصري، وسراج الدين الوراق، وبهاء الدين زهير، والبرعي، والشهاب المنصوري، والصاحب شرف الدين، وابن حجر العسقلاني، وشهاب الدين الخلوف، وابن دقيق العيد⁽²⁾.

لقد كثرت في هذا العصر الأندلسي المناظرات النثرية التي غالبا ما تعقد بين طرفين يعبر كل طرف بفضائله ويفاخر بما لديه من مزايا ويقدم البراهين والحجج بأساليب أدبية جميلة، وقد ينتهي الحكم بينها بتفوق كلا الطرفين أو تنتهي دون حكم ليتلقى القارئ ذلك ويعطي حكما مناسبا، كما تتعدد موضوعات المناظرة بين النمط المعنوي أو المادي كمناظرات بين الأماكن أو الأشياء أو الحيوانات والنباتات، أو أنواع العلوم أو بين الإنسان وإبليس، وسنورد بعض العناوين كأمثلة على نحو: مفاخرات مالقة وسلا للسان الدين بن الخطيب، مناظرة بين القلب والعين لابن قيم الجوزي، المقامة الوردية في الرياحين والزهور للسيوطي، المفاخرة بين الورد والنرجس لابن نباتة المصري...

وشهدت الأندلس رقيا فكريا وأدبيا نظرا للظروف السياسية والاجتماعية السائدة فيها، ونظرا لتشجيع الأمراء على العلم وتوفير أسبابه للأدباء؛ حتى جادوا بما حملت قرائحهم من إبداع، وقد عرفت مجالسهم العلمية والأدبية تنافسا حادا وإقبالا واسعا، ولا عجب أن

¹-علي رضا نظري: دراسة بنية ومضمون الحوار الأدبي المناظرة في أدب العصر المملوكي، مجلة إضاءات نقدية، السنة5، العدد20، 2015، ص150.

²-المرجع السابق، ص151.

كان أهل العلم والأدب من الأمراء الوزراء والقضاة، وكانت مجالسهم تضم الصفوة من أهل العلم والأدب، فتعرض فيها الأفكار وكل ماله علاقة بالإبداع فكانوا قدوة لجمهور الأدباء⁽¹⁾.

3-مناظرة السيف والقلم وبنيتها:

لقيت مناظرات السيف والقلم اهتماما واسعا من الكتاب، ويعد ابن برد الأصغر(450هـ)⁽²⁾ أول من عقد مفاخرة بين السيف والقلم في الأندلس، كتبها لممدوحه الموفق أبو الجيش مجاهد العامري نقلها لنا ابن بسام الشنتريني(522هـ) في ذخيرته. تتألف البنية الأساسية للمناظرة من عدة أجزاء: جزئي المناظرة: السيف والقلم، ثم الجزء الثالث هو الحكم الذي يحكم بين الطرفين بعد سماع أقوالهما بالتأكد من البراهين

¹-فورار امحمد بن لخضر: الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية دراسة موضوعية فنية، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، دار الهدى للطباعة، الجزائر، دط، 2009، ص60.

²-ابن برد الأصغر: هو أحمد الأصغر بن محمد بن أحمد بن برد مولى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شهيد يكنى بأبي حفص الكاتب، من أسرة قرطبية لعبت دورا كبيرا في إثراء الحياة الأدبية والثقافية، وقد عرف عن آل برد بأنهم جمهور كتابة ومحور خطابة. ولابن برد حظ وافر من الأدب والبلاغة والشعر، وهو من أهل بيت علم وأدب ورياسة، له مصنف أسماء: سر الأدب وسبك الذهب⁽²⁾. ويعد ابن برد من أقطاب النثر الفني في القرن الخامس الهجري، وصفه ابن بسام في ذخيرته بأنه فلك البلاغة الدائر ومثلها السائر، نفث فيها بسحره، وأقام من أودها بناصع نظمه، وبارع نثره، يقول صاحب الجذوة أنه رآه في المرية مرارا بعد سنة 440هـ ولا ندري هل لحق عصر المعتصم بن معن بن صمادح، أو أن القدر لم يمهل حتى عصره، عاصر ابن شهيد وابن زيدون لم يذكر صاحب الذخيرة الذي عني بجمع نثره وما تبقى من شعره شيئا عن نشأته الأولى؛ لكنه اكتفى بذكر علو مكانته. وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل، مع أنه كان من أشهر الوزراء في الأيام العامرية. مليح الكتابة، فصيح الخطابة، لقب ابن برد بالأصغر تميزا له عن جده ابن برد الأكبر الذي أخذ عنه العلم، وسار على نهجه وراح يفخر بالانتماء إليه والانتساب إلى علمه، وهذا التشابه في الاسم والكنية بين الجد والحفيد جعل بعض المؤرخين يخلطون في آثارهما الفنية شعرا ونثرا، فمثلا صاحب المطمح نسب مناظرته بين السيف والقلم إلى ابن برد الأكبر، في حين نسبها ياقوت الحموي إلى ابن برد الأصغر⁽²⁾. وعذر من ترجموا لابن برد أن معظم رسائله كان قد ضاع، حتى أن مواطنه ابن بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا ما لا يكاد يعرب عن فضائله، وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر وابن برد الأصغر.

والاستدلالات التي يسوقها كل طرف، وقد يكون هناك جزء رابع وهو تدخل الراوي الذي يروي بداية الحدث وسيره حتى نهاية المناظرة. من جهة البناء تتكون المناظرة من عدة عناصر أساسية أهمها: المقدمة، وعنصر الحوار، والنتيجة أو خاتمة المناظرة.

أ-المقدمة: يبدأ ابن برد مناظرته بمقدمة استهلها بالتحميد والصلاة على النبي الكريم «أما بعد حمدا لله بجميع محامده وآلائه، والصلاة على خاتم أنبيائه»⁽¹⁾ ثم أخذ يتحدث فيها عن أهمية السيف والقلم ودورهما في الحياة، فهما وسيلتان للوصول إلى المجد والشرف والمرتب العليا، ويثني عليهما معا فيهما مثل جوادين، سبقا في حلبة أو غصنين نسقا في تربة، بل هما مثل نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق، غير أنهما جرارا أذيال الخيلاء تفاخرا، وادّعى كل واحد منهما أن له الفوز على صاحبه وامتد بينهما الجدل والخصام، فقاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال⁽²⁾.

ثم يردف ذلك برصد العلاقة الوثيقة التي تجمع بينهما، وتقوم على الالتحام والاتساق، لا التشتت والانفصام، باعتبارهما وجهين لعملة واحدة، ومطية الباحث عن المجد، والمتيم بالالتشاح بأثواب الشرف والسؤدد، فقد «كانا مصباحين يهديان إلى القصد من بات يسري إلى المجد، وسلمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرى إليه، ويجمعان شمل الفخر لمن تأشب عليه»⁽³⁾.

ب-عنصر الحوار: ولا بد أن ينشب بين المتناظرين الخلاف والتحاسد، وأن يتفاخرا ويتناظرا في أسلوب محكميتمد الحوار أداة، والمنطق وسيلة تدعيم لرأي أو إقناع الخصم، فيذكر كل واحد منهما مآثره وفضائله ومحاسنه، ويزعم أنه أكثر أهمية من الآخر، ولما

¹-ابن بسام: الذخيرة، ق1، ج1، ص523.

²-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، ص460.

³-ابن بسام: الذخيرة، ق1، ج1، ص523.

اشتد الصراع بينهما واحتدم قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال، وقد جعل ابن برد القلم أول من يتحدث في المفاخرة والمناظرة.

تمتد المناظرة بين طرفين نجح كل منهما في أن يصبغ آراءه بما يتسم به من سمات يظهر فيها كل عنصر وكأنه متربع على قمة المناظرة فيرسل الحجة تلو الأخرى لينال من الآخر فالقلم أراد أن يكشف للسيف أن أصحاب القلم إنما يستمدون قوتهم وأفكارهم وخواطرهم من القلب والعقل، بينما السيف يستمد ذلك من القوة والاندفاع، فجاء الحوار يتأرجح بين الحدة والهدوء، وبين روحية الأثر ومادية الفعل.

ج-النتيجة: وبعد استمرار الحوار والجدال، وكل طرف يقدم حججه وشواهد على السبق والتفوق إلى أن تنتهي الرسالة بقطعة شعرية يصل منها الكاتب إلى غايته العملية وغرضه الشخصي، ومدح أبي الجيش مجاهد، والثناء عليه بحيازته البراعة في السيف والقلم معا ومن هذه الأبيات⁽¹⁾.

قد آن للسيف ألا يفضل القلما مذ سخر لفتى حاز العلا بهما
أن يجتني المجد غضا من كمائمه فإنما يجتني من بعض غرسهما
وتنتهي المناظرة بجنوح كلا الطرفين إلى السلم بعد أن استنفدا ما لديهما من حجج لم تستطع حسم الموقف لأي منهما، وأجمعا رأيهما على أن يكتب القلم ميثاق تصاف يجسد رغبتهما في نبذ كل خلاف، والعمل على إعلاء دولة الموفق أبي الجيش مجاهد العامري. وبذلك وصل الكاتب بإدارة الحوار إلى التسوية الحتمية وذلك لأهمية كل واحد منهما في هيكل الدولة وطالما أنهما في قبضة الحاكم العادل.

4-الخصائص الفنية في مناظرة:

¹-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، ص243.

1.4-تعدد الروافد التراثية: تعددت الروافد التراثية عند الكتاب الأندلسيين لكثرة المحفوظ عندهم وعنايتهم بجمع العلوم الإسلامية، فظهرت اقتباساتهم من القرآن والسنة النبوية، وتضمنيات من الشعر العربي والأمثال، وتباينت وسائل الاستعانة بها والإفادة منها.

2.4-الوظائف البلاغية: لقد أبانت هذه القطعة النثرية عن أوجه بلاغية مختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية، فوظف ابن برد الكثير من الصور التشبيهية لغرض إيصال وتثبيت أفكار وحجج كل طرف من طرفي المناظرة، ومن أمثلة ذلك: «إن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد»⁽¹⁾. جعل من القلم والسف مصباحين هاديين ينيران في دياجير الظلمات، ويقول في صورة أخرى: «تلحقني بحل وحمائل كشمائل حتى أبرز براز الهندي يوم الجلاء»⁽²⁾ والفائدة من هذه الصورة التشبيهية البليغة هو الإقلال من قيمة خصمه، كما وظف الكاتب العديد أيضا من الصور الاستعارية، ومنها ما جاء في قوله: «يجمعان كمل الفخر لمن تأشب عليه»⁽³⁾.

3.4-المحسنات البديعية: وظف ابن بُرد الأصغر المحسنات البديعية اللفظية منها والمعنوية توظيفا أثرى الإيقاع الداخلي الأفقي في جرس الألفاظ والعبارات والمحسنات البديعية وكثرة التقسيم، ودعم ما طرح من أفكار وآراء تارة أخرى، وجاء استناده إلى المحسنات اللفظية أكثر شيوعا من المحسنات المعنوية.

4.4-الرمز: يعد الرمز من العناصر الأساسية في المناظرات النثرية يوظفه الكاتب ليكشف عن جوهر الصراع الخفي بين عنصرين أساسيين من أعمدة بناء الحكم وإدارة السياسة في الدولة، القلم وما يرمز له من سلطة الكتاب والمؤلفين والمبدعين المؤثرين في

¹ - ابن بسام: الذخيرة، ق 1، ج 1 ص 523.

² -المصدر نفسه، ص 525.

³ -المصدر نفسه، ص 523.

الرأي، والسيف وما يمثله من طبقة الجند والقوة الحاكمة التي تتولى زمام الأمور في
مفاصل الدولة، وهما دعامتان تبنى عليهما الدول.

الخاتمة:

في ختام تقديم هذه المحاضرات يمكن القول: إن مفردات الأدب الأندلسي والمغربي تحمل أدبا غزير المادة ثر الموضوعات ممتد في فترة زمينة طويلة، والمحاضرات البيداغوجية المقررة لا تكفي لعرض مادته ونصوصه، بل تكتفي بإدراج بعض الموضوعات والقضايا من الأدب الأندلسي بقسميه الشعر والنثر.

-تطرقت مفردات الأدب الأندلسي والمغربي في هذه المرحلة إلى موضوعات متنوعة وقضايا مختلفة، تعكس جوانب من الحياة في الأندلس، وشكلت حمولة معرفية، وقيمة تاريخية لأيام وأحداث المسلمين في هذا العصر.

هذا العصر الذي عدّه الباحثون بأنه عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العلم والعمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل في أرض المغرب الاسلامي، أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وتألقت العربية، وزهت آدابها، ونُقلت العلوم العربية، وترجمت إلى غيرها من لغات الأقطار الأجنبية، وانتشرت الفلسفة الإسلامية، ونضج العقل العربي، ووجد سبيلا إلى البحث والتفكير والتأليف. وعليه فالإطار الزمني للمقياس يشمل فترة زمنية معتبرة شهدت كثير من الأحداث السياسية والتطورات الأدبية والفنية.

-أثر الامتزاج العنصري كون المجتمع الأندلسي في حركة الشعر، وساعد على بروز مظاهر الإبداع والتميز في الأدب الأندلسي، وما استحدثت فن التوشيح والأزجال إلا دليل على ذلك .

-شاع شعر الطبيعة في الأندلس وشكل ميسم الإبداع في الحياة الأدبية الأندلسية، وذلك لافتتان الأندلسي بجمال الطبيعة الأندلسية، فجسدوها في شعرهم وفي كل فنونهم.

-عرف الأدب الأندلسي أعلاما وقامات أدبية وفنية تركت بصمتها في الحياة الأدبية الأندلسية نذكر منهم: ابن شهيد وابن زيدون وابن حزم وابن طفيل، وغيرهم.

هذه مجموعة من المحاضرات التي تختصر زمن الأدب الأندلسي والمغربي، وهي في الحقيقة دروس مختصرة لأننا لا نستطيع - مهما اجتهدنا - أن نقدم هذا التراث الغزير من موضوعات الأدب الأندلسي والمغربي، واتجاهاته، وقضاياها الشعرية، وأجناسه النثرية المتنوعة، وترجمة أعلامه في هذه الصفحات المحدودات. فإن أصبت فمن الله تعالى وحده، وإن جانببت الصواب فحسبي أني اجتهدت وبالله التوفيق.

قائمة المصادر والمراجع.

أولاً: المصادر:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1- ابن الأبار القضاعي: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة.

2- ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000.

3- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، دار المنصور للطباعة، 1972.

4- الجرجاني القاضي: الوساطة بين المتبني وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

5- ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار العلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

6- الزركلي خير الدين: الأعلام قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002.

7- الحميري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2.

8- ابن حزم: رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987.

9- الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، تحقيق بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الاسلامي، تونس، ط1، 2008.

10- الكاتب ابو الحسين اسحاق: البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحارثي، مطبعة العاني، بغداد، العراق، 1967.

11- لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

12- ابن ماجة الحافظ: سنن ابن ماجة، تحقيق محمد عبد الباقي، دار الاحياء، بيروت، لبنان، دت.

- 13-المقري أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن أهل الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1998.
- 14-ابن سعيد الأندلسي: رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات، دمشق، ط1، 1987.
- 15-ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1949.
- 16-العسكري أبوهلال: كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 1986.
- 17-القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، 1915.
- القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
- 18-ابن القيم الجوزية: مدارج السالكين، القاهرة، مصر، ط1، 1292هـ.
- 19-ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة.
- 20-ابن الخطيب لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، 1983.
- 21-ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 22-ابن خاقان الفتح: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983.

ثانياً: المعاجم اللغوية:

- 1-ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993.
- 2-محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الكريم الغرابوي، ومراجعة السامرائي وعبد القادر أحمد فراج.
- 3-ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- 4-مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، دت.

5- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ.

6- ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1979.

ثالثاً: الدواوين الشعرية:

1- ابن الأبار، الديوان، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1956.

2- ابن الجنان الأندلسي: الديوان، جمع وتحقيق: منجد مصطفى بهجت، مطابع التعليم العالي، جامعة الموصل، 1990.

3- ابن دراج القسطلبي: الديوان، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكتب الاسلامي ، دمشق، سوريا، ط1، 1961.

4- ابن حزم الظاهري: الديوان، تحقيق صبحي رشا عبد الكريم، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، ط1، 1990.

5- ابن حَمْدِيس: الديوان، تقديم إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، دت.

6- ابن زيدون: الديوان، شرح يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1994.

7- ابن زمرك: الديوان، تحقيق محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997.

8- يحيى بن الحكم: الديوان، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1993.

9- ابن اللبانة: الديوان، تحقيق محمد مجيد السعيد، دار الراية للنشر، عمان، الأردن، ط2، 2008.

10- المعتمد بن عباد: الديوان، تحقيق رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، ط1، 1975.

11- ابن سهل الأندلسي: الديوان، تحقيق يسرى عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003.

12- ابن قزمان أبو بكر: الديوان، تحقيق كورنيطي، المعهد الاسباني للثقافة، مدريد، إسبانيا، 1980.

13- ابن خفاجة، الديوان، شرح عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، دت.

14- ابن الخطيب لسان الدين: الديوان، تحقيق محمد مفتاح، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1989.

رابعاً: المراجع:

1- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1969.

- 2-إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ط8، دت.
- 3-أحمد أمين: ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مدينة نصر، مصر، دط، 2013.
- 4-أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط10، دت.
- 5-أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار المعارف، القاهرة، ط14، 2004.
- 6-أحمد بن محمد بن الحسن الضبّي: ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1998.
- 7-أحمد بسبح: لسان الدين بن الخطيب عصره بيئته حياته وآثاره، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994.
- 8-أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 9-أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1985.
- 10-أنس بديوي وحسان الطيبي: روائع الشعر المملوكي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2005.
- 11-انخل بالانثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، نقل حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، ط4، القاهرة، 2008.
- 12-بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت، لبنان، ط6، 1968.
- 13-جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1966.
- 14-حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986.
- 15-حكمة علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، دط، 1971.
- 16-يوسف عيد: دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2006.
- 17-ياسين الأيوبي: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، جروس بيرس، طرابلس، لبنان، ط1، 1995.

- 18-محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2005،
- 19-محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.
- 20-محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس العصر الثاني دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1997.
- 21-محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 2000.
- 22-محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ط2، بيروت، لبنان، 1981.
- 23-محمد عباس: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم، الجزائر.
- 23-محمد زكريا عناني: تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1999،
- 24-محمد عبد المنعم خفاجي: الادب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.
- 25-محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1970.
- 26-محمد توات: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر .
- 27-مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده، دارالعلم للملايين، بيروت، ط5، 1988.
- 28-مصطفى هدار: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دت.
- 29-مارغريتا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوروبا عبر الأندلس، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، دار الرشاد، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 30-نبيل خالد أبو علي: الأدب العربي عصري المملوكي والعثماني، دار المقداد للطباعة، غزة، فلسطين، 2007.
- 31-سلامة علي محمد: الأدب العربي في الأندلس تطوره وموضوعاته واشهر أعلامه، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، 1989.

- 32-السعيد محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، دار الراية للنشر، الجزائر، 2008.
- 33-السعيد محمد مجيد: الشعر في ظل بني عباد، دار الكتب الوطنية، الجزائر، 1972.
- 34-عبد المنعم خفاجي: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، ط1، بيروت، لبنان، 1992.
- 35-عبد الله حمادي: المورسكيون ومحاكم التفتيش، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 .
- 36-عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للنشر، بيروت، لبنان، 1976.
- 37-علي محمد سلامة: الأدب العربي في الأندلس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، دط، 1989.
- 38-عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1 1989.
- 39-عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق، بيروت، لبنان، دط، 1975.
- 40-فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر، ط1، 1989.
- 41-فوزي عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، ط1، 2007.
- 42-فورار امحمد بن لخضر: الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية دراسة موضوعية فنية، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، دار الهدى للطباعة، الجزائر، دط، 2009.
- 43-راغب السرجاني: قصة سقوط الأندلس، مؤسسة اقرأ للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2011،
- 44-الشنقيطي محمد الأمين: آداب البحث والمناظرة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، دط، دت،
- 45-شوقي ضيف: دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5. دت.
- 46-شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1989.
- 47-خليل محمد: في الأدب الأندلسي موضوعات وقضايا، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد، العراق، ط1، 2017.

48- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلسي، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2000.

خامسا: الدوريات:

1- علي رضا نظري: دراسة بنية ومضمون الحوار الأدبي المناظرة في أدب العصر المملوكي، مجلة إضاءات نقدية، السنة 5، العدد 20، 2015.

2- قيس النوي: الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا، مجلة عالم الفكر، مج 10، 1979.

3- رحمة بنت الحاج أحمد عثمان: عصر الانحطاط بين القبول والرفض، مجلة التجديد، مج 21، العدد 41، 2017، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا.

4- خالد الحلبي: الشعر التعليمي بدايته تطوره سماته، مجلة دمشق، العدد الثالث والرابع، مج 22، 2006.

سادسا: الرسائل علمية:

1- أحمد بن عيضة الثقفي: قضايا الشكل والمضمون في الموشح الأندلسي في عصر بني الأحمر، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، السعودية، 2006.

2- مصطفى عليان: تيارات النقد الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، 1978.

3- حميدي خميسي: الحركة الأدبية في اشبيلية لزمان بني عباد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة دمشق، سورية، 1984 .

4- مها روي إبراهيم الخليلي: الحنين والغربة في الشعر الأندلسي عصر سيادة غرناطة، رسالة ماجستير 635-897هجرية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2007.

فهرس الموضوعات.

01	مقدمة:
04	1-من مظاهر الحياة العامة في الأندلس
13	2-الشعر الأندلسي عبر العصور الأندلسية
24	3-الشعر الأندلسي بين التقليد والتجديد
32	4-شعر الطبيعة
41	5-رثاء المدن والممالك
50	6-الحنين والغربة في الشعر الأندلسي
61	7-شعر الاستصراخ والاستغاثة
68	8-الشعر التعليمي
74	9-الموشحات الأندلسية
86	10-الأزجال الأندلسية
93	11-الأدب في عصر المماليك
101	12-من فنون النثر الأندلسي: الخطابة
107	13-فن الترسل في الأندلس
114	14-رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد
120	15-فن المناظرة في الأدب الأندلسي
128	الخاتمة:
130	قائمة المصادر والمراجع:
137	فهرس الموضوعات: